ثلاثة رجال وامرأة



ابرهيم عبد القادر المازني

لجنة النشر للجامعيين

Thalāthat rijāl wa-imra'ah

ثلاثة رجال وامرأة

تأليف

ابرهيم عبد القادر المازنى

al-Māzinī

يطلب من

مكتبة مصر ومطبعتها

٦٣ شارع الفجالة — مصر

مطبعة مكتبة مصر

لجنة النشر للجامعيين

أصدرت

أحمس	عبد الحميد جوده السحار	مايو ١٩٤٣
رادوبيس	نجيب محفوظ	يوليه ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى	عبد الحميد جوده السحار	سبتمبر ١٩٤٣
قنابل	محمود بك تيمور	نوفمبر ١٩٤٣
اخناتون ونفرتيتى	على أحمد باكثير	ديسمبر ١٩٤٣
ثلاثة رجال وامرأة	ابراهيم المازنى	يناير ١٩٤٤

تحت الطبع

أقاصيص	المازنى - تيمور - المصرى - عادل كامل - نجيب محفوظ - فتحى أبو الفضل - السحار	فبراير ١٩٤٤
سلامة القس	على احمد باكثير	مارس ١٩٤٤

الفصل الأول

لعل من العبث أن يحاول المرء أن يرسم بالقلم صورة لإنسان أو شيء ما ولاسيما إذا كان الكاتب رجلا والموصوف امرأة ؛ فليس أجهل من الرجل بالمرأة ولا من المرأة بالرجل ، وإن كانا يعيشان معاً ، ويتحابان — لا أدرى كيف ؟ — ويتزاوجان ويعمران الأرض بنسلهما ، ويبذران ذريتهما كالحب . ولا تسألني كيف يأتلف هذان المختلفان ، ويتواطن هذان الإنسانان — إن صح أن كليهما إنسان — وكل منهما لصاحبه لغز لا حل له ؟ فما كنت خلقتهما أو شهدت خلقهما ، أو عاصرت جديهما الأعليين ، حتى أدرى . .

على أن التصوير بالقلم ، وإن كان لا يفيد أحداً صورة واضحة المعارف بينة السمات متميزة اللمحات ، يتيح لكل قارىء أن يرسم لنفسه صورة ، يؤلفها خياله مما توحى به الأوصاف وكفى بهذا مغنما . والله أرحم بالكتاب من أن يجعل عناءهم باطلا وتعبهم لاخير فيه .

فلنتشجع إذن ، ولنتوكل على الله الحنان المنان .

كانت الليلة ساجية طلقة . والقمر متسقاً مضحيا فى سماء تبدو فى رأى العين كالمخمل ، والدنيا المسحورة ، من نوره الواضح اللين ، فى فوف منسوج من خيوط سود وأخر فضية ، وقد أفضلت لها فضول ؛ والأشجار تذهب فى الهواء كأنها عمد مدهونة ، وتلق ظلها مد نرا على الأرض ، وتعطر الجو ؛ والنوافذ والشبابيك كلها مفتوحة يهفو منها ترجيع شجى يمتد به صوت أنثوى ينتقل من نغمة إلى نغمة فى غير تكلف أو جهد .

وكان فى حديقة البيت جوسق (كشك) سداسى الشكل مصنوع من أعواد الخشب ، وقد تعلق به وارتق فيه وظلله النبات ؛ وفيه مائدة عليها بقية من لحم ، وجزلات من رغفان ، وقطع من مخلل الخيار واللفت والجزر والباذنجان ، وقرص متصدع من جبن حالوم ، وزجاجات جعة بعضها نصفان أو دون ذلك ، والبعض لايزال فى الثلج وعليه سداده لم ينزع . وقد جلس إلى المائدة ثلاثة أمامهم الأقداح وقد أبطأوا بها بعد أن كادوا يمتلئون من الطعام والشراب .

وأول هؤلاء الثلاثة وأولاهم بالتقديم ، وإن لم يكن أحقهم بالتعظيم « عياد » وهو شركسى الأصل يؤمن بالشارب المفتول ،

والعين الحمراء والبرجمة فى الكلام ، والزعقة الشديدة حين ينادي خادما أو غيره ، وإن كان الجرس قريبا ، وزره يتدلى فوق المائدة من سقف الجوسق . ولا نحتاج أن نقول إنه شخيص لحيم ، وإنه شديد الوطء على الأرض ، وإنه لا خير فيه ولا شر ، إلا أن يجيء الخير عفواً ، أو يجيء الشر من قلة العقل أو النفخة الكذابة .

والثانى فى هذا المجلس الأستاذ حليم ، وهو مدرس قديم ناهز الخمسين وآثر الراحة ، فاعتزل العمل مكتفياً بدخل خاص يسير ، ومعاش يقبضه كل شهر من الحكومة وهو قاعد . وهو ضاوى الجسم خفيف اللحم معروق الوجه ، دقيق عظام اليدين والرجلين ، يأكل كثيراً ولا يرى أثر ذلك عليه فى بدنه ، وحديثه طويل فلنرجئه إلى أوانه .

والثالث شاب فى العقد الثالث ، بتع شديد المفاصل ، سريع خفيف حسن الصورة ، بياض وجهه تعلوه حمرة وعلى جلده عش قليل ، وهو خطيب محاسن بنت عياد ، وقد آثره على غيره لبياض وجهه ، زاعماً أن هذا يسلكه مع الشراكسه والأتراك ويرفعه عن طبقة الفلاحين الغبر الوجوه وإن كانت الحقيقة أنه فلاح ابن فلاح جلا عن قريته بعد أن أضاع أرضه فيها ، فشب ابنه حضرياً صرفا وقاهرياً محضا ، وتعلم الهندسة وفاز

بوظيفة فى الحكومة . واسمه فى شهادة الميلاد محمود ، ويدلله أهله تدليلا سمجاً فيقولون « حوده » ، ومن الإنصاف أن نقول إنه يستسخف هذا الاسم ، وكان يثور على من يدعوه به ، ثم رأى أن هذه حكاية شرحها طويل فاكتفى بأن لا يجيب كأن المنادى غيره .

وكان عياد أكولا شريبا ، ولم يكن هذا يعنى أحداً سواه . ولكنه كان إذا آكل أحداً أوشاربه ، لا يزال يحضه ويستحثه ، ويزين له الطعام ويغريه به ، ويوالى عليه الكأس دراكا . وكان من السهل على محمود أن يسايره ، فإنه شاب قوى لا يتعذر عليه — بل لعله يباهى بأنه يستطيع — أن يكثر مخلطاً من صنوف الطعام مستقصيا لها .

أما الأستاذ حليم فكان رجلا قد كبر فهو يؤثر أن يكون زهيداً لا يأكل إلا دون الشبع ، ويأبى له ماعودته مهنة التعليم من المحافظة على وقاره واحتشامه ، أن يشرب حتى يتطرح . وكان إذا ألحف عليه عياد يرفع الكأس ويميلها على فمه ، فعل الشارب ، ثم يردها وما حسا إلا قطرة أو بلة ريق . على حين يعب عياد العبة الروية ويضع الكأس كأنما يدق بها المائدة ويقول « اهح » مطوطة ممدودة . وكان هذا دأبه حين يشرب . يعكف على الشراب جزافا غير حافل بالكيل كأنما هو فى سباق أو رهان ولا يرضيه إلا أن يرى غيره عاكفاً مثل عكوفه .

فإذا استأنوا أكبر فى ظنه أنه قصر فى التحفى والإكرام ، وكان واسع الخلق لا يدع عنده شيئا من الجهد فى إكرام ضيفه ، ويجد فى انبساط نفسه بالكرم راحة ولذة وزهواً . ولكنه كان إذا شرب يثقل على ضيفه ويضجره بالإلحاح عليه أن يقبل على ماقدم له .

وعبثاً كان الأستاذ حليم يقول لعياد « يا أخى كن منصفاً . إن معدتى حوصلة دجاجة ، فأين تريد أن أدس كل هذا الطعام والشراب ؟ وهو لو وضع فى كفة ميزان ووضعت أنا كلى بما علىّ من ثياب فى كفة أخرى ، لرجح علىّ »

فيقول عياد وهو يلمس شاربيه المصمغين — أو هكذا يخيل إلى المرء فما كانت شعرة واحدة تنفلت عن محلها فى هذين الشاربين المبرمين بل المجدولين ، أو تنطفىء لمعتها — « كلام فارغ . أنا والله رأيت شابا أصغر منك جسما يأتى على قصعة فت ويجرفها جرفا وكانت لأربعـــة فسبقهم إليها ومسحها ولحسها » .

فيقول الأستاذ حليم « شاب .. نعم .. معدة جيدة قوية تحتمل الكظة . ولكن معدتى طاعنة فى السن ، فهى أشبه بمخلاة قديمة . هات لى معدة فتية وأنا أريك كيف أقش وأجرف .. »

ولكن عياد يأبى أن يقتنع ، بل يأبى أن يحمل باله إلى ما يقال أو يسمح للحجة بأن تدخل رأسه وتكلفه عناء التفكير فيها ، لأن معدته هو ، هي المحك ، والمقياس ، والحجة . وما دامت هذه دائبة كالعصرين من دهره في غير كلال أو فتور ، فلا عذر لمعدة أخرى إذا قصرت أو ونت ، ولو كانت أقدم من هرم خوفو أو جبل المقطم .

وكان التطريب الذي قلنا إنه كان يهفو في تلك الليلة الساكنة الضحياء إلى الجلوس في الحديقة ، مصدره محاسن ، وهي فتاة غضة السن صغيرتها تدلف إلى العشرين ؛ ولكنها فيما يرى أبوها عياد قد صارت إحدى المصائب الكبر . وكانت دقيقة الطول ممشوقة القد ، أو نحيفته اذا اعتبرت خفة اللحم على الذراعين والصدر والبطن ؛ ولكنها كانت عريضة الألواح كالغلام ، وثدياها صغيران وإن كانا راسخين كالكمثرى الصغيرة ، وحلمتاهما ناشزتان طويلتان وحولهما من السواد أكثر من المألوف في العذارى ، كأنما كانت قد ولدت وأرضعت . فأما محياها فأسيل الخدين وإن كانا متهضمين قليلا ؛ وأما شفتاها فرقيقتان جداً ، يفتران حين تبتسم عن ثنايا عذاب ، إلا أنها ليست بالناصعة البياض لإفراطها في التدخين بكره أبيها ورغمه ؛ وأما عيناها فنجلاوان ظمياوان ، ولكنهما تبدوان حين يحروها

فتور أو كمد أو اضطراب ثابتتين ، ويخيل إليك أنهما أظلتا
وكان حاجباها سابغين مهللين كأنهما خطا بقلم ، وجبينها عريضا
واسعا ، وشعرها أسود فينانا فى طول واسترسال ونعومة ،
تفيئه كيف شاءت بغير احتفال أو عناء . وكانت تؤثر أن ترسله
ولا تجمعه .

أما أنها إحدى المصائب الكبر فذاك لأنها عرفت من سيرة
أبيها ما كان يكره أن تعرف هى أو أمها . ولكنها كتمت سره
واكتفت بإذلاله به ، فأرخى لها الحبل على الغارب ، فركبت
رأسها ، ولم تعد تحفل غير أمها . وكانت هذه ضعيفة بطيئة
الجسم والعقل معاً ، لا متصرف لها ولا حيلة عندها .

على أن الفتاة لم تكن سعيدة بهذه الحرية أو موفقة فيما
تعالج أو تدبر أو تطلب من الأمور . وقد ورثت عن أبويها
ضعف الرأى ، وقلة الإحكام للمراد ، والاستعداد للرضى
بالكلام ، والاستنامة إلى كل أحد وشيئا من الزهو والعترسة
والميل إلى التظاهر والتفاخر بالباطل أو بأكثر مما هناك .

وكان جانب الغفلة فيها يكاد يلقيها على المعاطب فلا يقيها
إلا بقية حذر مستفاد من الكبر الموروث والأنفة أن يقال
غوت وضلت بنت عياد ، ومما أكسبتها الحرية من اعتياد
الاعتماد على نفسها فى أمورها وإيقاظ ما فى رأسها من عقل

ليعينها ويمدها بالرأى فيما هى ماضية إليه . على أن الأرجح أن هذا كله ما كان ليجديها ويحميها لو لا أن ساعفها حسن حظها .

على أن حسن الحظ أمر نسبى ؛ فقد كانت حسنة الحظ إذا اعتبرت ما آلت اليه فى كل مرة من السلامة . ولكنها كانت سيئة الحظ إذا اعتبرت أن أملها خاب فى كل مرة حتى كادت تصير إلى اليأس فى كل ما تطمع فيه وتحرص على إدراكه : فاضطربت أعصابها وأتعبها وأقلقها قلبها بنوبات من الخفقان الشديد لامثير لها إلا هذا الاضطراب . وقلت طعامها لا زهادة فيه ، ولا عن ضعف اشتهاء له ، بل من الضجر والحيرة وقلة التوفيق وكثرة الإخفاق وخفاء ما ينعش من العثرات ، ويصلح هـذا البخت المقلوب .

وزاد الطين بلة لما تعلق أبوها بحسانة يهودية راح يحملها معه إلى المصايف والمشاتى ويزعم لأهل بيته أنه منـدوب لمهمات تستوجب هذا السفر والغياب ؛ فأنزفت هذه « المهمات » أكثر ماله ، وقتر على أهله فى النفقة ، وأصارهم إلى ضنوكة غير معهودة وإن كانت فى ذاتها محتملة ولكن وطأتها ثقلت بالقياس إلى ما كان من السعة . وشق على محاسن أن تلفى نفسها تروم الشىء فلا يتهيأ لها ، وإنها اضطرت إلى الكف عن التعلم ، وكان مرجوها أن تواصله حتى تبلغ به مناها فتصبح شيئا له قيمـة

وبه استقلال ، فتفيد بذلك مزية تضيفها إلى مزايا الحسن والشباب وكرم الأرومة ؛ فقد كانت تعتز بأرومتها الشركسية وإن كانت رقة الحال قد خففت من غلوائها وطامنت من كبريائها.

وكان كل هذا ، مضافا إلى مايهتف به شبابها ، وما تجده من الرغبة فيها والإقبال عليها ، ربما أغراها بالإطماع فى نفسها دون التمكين . فاعتقد الشبان الذين اتصلت بأسبابهم أسبابها نوعاً مّا ، أنها مخادعة عابثة تظهر خلاف ماتبطن ، وتعطيهم باللسان ما ليس فى القلب ، وتجريهم وراءها لتلهو بهم وتسخر منهم . فانصرفوا عنها ساخطين محنقين ؛ وبسطوا ألسنتهم فيها فطارت لها سمعة لا تطيب لامرأة وإن لم تكن من الحق فى شىء.

ومع ذلك خطبها غير واحد قبل محمود . فأما أول الأخطاب فعلق خطبته على شرط أن يزوج أخته ، وكانت تصغره ، لأنه كان أربها من أن يختص نفسه بنعيم الزواج دونها - ولكن عزوبة الأخت طالت - فضجر عياد أفندى ومحاسن ، ونقضا الخطبة .

وجاء ثان من إخوان عياد أفندى وجلسائه وسماره ، ولم يخطب البنت ، ولكنه تحبب اليها ، وصغت هى إليه بودها ، فقد كان أنيس المحضر لطيف الفكاهة سخى اليد . وخيل إلى عياد أفندى وامرأته أن المسألة مسألة أيام ، ولكن الأيام والشهور

تقضت وهو لا يزيد على التودد ولا يجاوز ما يبدو من إقباله، إلى الخطبة والطلب، ولا حتى إلى الوعد. وما زالت نيته مضمرة لا يتحدث بها أو يكشف عنها وإن كان لا يكف عن إظهار المودة والاعجاب، والغيرة أحيانا.

ثم كان محمود، وهو يحبها، ولا يجهل ما قيل فيها وشاع عنها وكان يعلل هذا بأنه قدح شبان لم ينالوا منها منالا فذهبوا يشنعون، وللذى قالوا فيها أدعى إلى فخرها. وبحسبها أنها امتنعت عليهم واستعصت على المغريات — ولكن أشياء بقيت مع ذلك تحك فى نفسه وتدور فى صدره، ولاسيما حين يرى قلة مبالاتها بما يكون منها كأن تذهب إلى السينما مع رجل لم تعرفه إلا فى يومها، بل قبل ساعة واحدة من الاقتراح، أو حين تقبل على الأستاذ حليم إقبـــال الألفة والثقة وتساروه وتضحك، ويساررها ويتبسم كأن بينهما ما يكتمان أو ما يتساقيان تذكره.

ولم تكن محاسن تبادل محموداً حباً بحب، بل لعلها لم تكن تباليه أو تعبأ شيئاً بإقباله أو إدباره، إذا صح ما كانت تفضى به إلى الأستاذ حليم حين يخلو لها وجهه. ولو كان محمود حصيفـاً لكان الأرجح أن يسلس فى يده قيادها؛ ولكنه أثقل عليها ونفرها بأن كان عيابة لا يزال يقع فيها ويذكرها بما يشنع به عليها أهل الحى وعارفوها من غيره، ولا ينفك يسمعها

من الكلام كل سوار يأخذ بالرأس ، كلما رآها طاشت أو نبت في العنان فتثور به وتكايله وتقول له أوجع مما قال لها : فتقع الجفوة وتحل النبوة ، ويفسد الحال ؛ ويعجز عياد أفندى عن إصلاحه ، فيستجير بصاحبه الأستاذ حليم فيشكره محمود وهو كاره وفى قلبه غيرة تضطرم ، لما يراه من سلطانه عليها وطاعتها له .

— ٢ —

وكان أمر الأستاذ حليم عجيباً ، وهو رجل يتمثل فيه « نقص القادرين على الكمال » كما يقول أبو الطيب . فقد كان محيط علم ، وكان إلى علمه فهما نجيباً و « لوذعيا يرى بأول ظن آخر الأمر من وراء المغيب » ومع ذلك أبى أن يكون أستاذا فى الجامعة وآثر الإخلاد إلى الراحة ؛ ولو شاء مع الراحة وخلو الذرع وانفساح الوقت لجاء الناس بجناة طيبة وثمار يانعة من شجرة علمه المحلال ، ولكنه ترك الخلفة واللحق من ثمرها يهمد فى موضعه ولا يدرى أو ينتفع به الناس . وكان ماله كافيا للسعة والخفض ونعيم البال ولكنه كان يعيش عيشة الشظف والضيق كأنه محقق مخف من المال أو مسكين ، وكان أخوف ما يخاف الفقر والحاجة ، فهو يضيق على نفسه وأهله خشية الضيق . . وكان معافى فى بدنه ولكن طول إكبابه على التحصيل ومواظبته

على الدرس والمطالعة مع قلة الطعام وسوئه، أورثاه ضعفاً فى جسمه وفساداً فى معدته وحشاه وتلفا فى أعصابه، ومع ذلك لا يستشير طبيبا ضنا بأجرته وثمن الدواء. واكتفاء بما يصفه له إخوانه من العقاقير «البلدية» مثل المصطكا والحنتيت وما يجرى هذا المجرى، فلم يصح قط مما به.

ووقع له فى عنفوان شبابه ما زاد تلف أعصابه، فقد أحب جارة له معلمة مثله، وكانت ذات حسن وشورة طيبة النفس ضحوكا، وأريبة موثوقا بفضلها وعقلها؛ ولكنها كانت أيضا ذات فلسفة وعناد. وأحبته سميحة كما أحبها، غير أنها لما عرض عليها الزواج. ترددت، وسوفت. وكانت تقول لأختها كلما جادلتها ونهتها عن هذه المماطلة التى لا خير فيها ولا حكمة «إنى أحب الأستاذ حليم — أحب مظهره ومخبره، فإنه سمح واسع الأفق رحيب النفس؛ وأحب مشيته التى لا تكلف فيها ولا جهد وأحب صوته ونبرته المرتعشة؛ وأحب فوق ذلك لمعة عينيه وذلك الادراك التام الذى لا أخطئه فيهما حين أنظر إليه. ولكن هناك شيئاً يخيفنى.. لا أدرى ماذا... وإن فى نفسى لشكا عجيباً. فأنا أحبه، ما فى هذا شك، ولكنى أشك فى قدرتى على مبادلته حبه لى، فإنه عميق مستغرق، ويفزعنى شكى هذا، فأحس كأنى أتحسس فى الظلام باحثة عما لا أدرى...»

وأخيراً تم الزواج .

وقالت لها أختها ليلة الجلوة ، وكانت أحكم طبعاً « إن فى حليم كل ما تشتهى المرأة ؛ وأعتقد أنك ستكونين معه سعيدة ؛ ولكنى أرجو أن تذكرى دائما أن عليك أنت بذل أقصى مايدخل فى طاقتك لإسعاده ؛ فإن على المرأة أن تمنح بعلها فوق ماترجو وتتوقع أن يمنحها . » .

وكان هذا أشبه بالإنذار ، أو التحذير . وكانت سميحه تريد إسعاد حليم ، وقد أسعدته ؛ ولكنها كانت تبدو شاردة ساهمة كأن بها شيئا . ولم يفت صواحبها هذا ، ولكنهن حسبنه من نشوة السعادة ، فرحن يركبنها بالفكاهة ، وهى لا يسعها إلا أن تبتسم متكلفة . فما كانت تستطيع أن تصارحهن بأنها دهشة فزعة وأنها تخاف شيئا مجهولا خفياً لا تدرى مايهجم عليها منه .

وقال لها حليم لما انفض الجمع وخلا بها « إنك مازلت طفلة ، وسيكون عليك أن تعرفى الحياة ، وتفهمى معناها ؛ وإنه ليسرنى أنى سأكون معلمك » .

فأحست أن هذا تأنيب ، فكأنه قال لها إنه وجدها دون ماكان يتمثل ؛ ومن أجل هذا يتكلف هذا التعليل لما تبينه من النقص . ولعل الأرجح أنه لم يكن يدرك — ولا هى أيضا — أنها كانت غير ناضجة من الوجهة الجنسية ، وكان شعورها

بنقص ما فيها ، يرتسم على وجهها حتى لقد قال لها بعد يومين من زواجهما « ألا تستطيعين أن تبتسمي لزوجك ؟ أتذكريني ؟ إنني الرجل الذى شرفته بأن تكونى امرأته »

فأكرهت وجهها على الابتسام لتستر ما يخالجها .

ثم استقرت الأمور ، واضطردت الحياة على نحو لا شذوذ فيه عن المألوف . وجاء يوم أحست فيه بدوار واضطربت معدتها ونهضت فاستشارت طبيباً ثم عادت تحمل أشياء مما يعد للولدان . فلما رأى حليم ذلك أبرقت عينه وسألها « ماهذا ؟ » قالت « لولدك » فجمعها فى ذراعيه مترفقاً وقال بصوت خفيض كالهمس « أنت والولد . . . هذا كل ما ينشد رجل من دنياه »

وكانت تحدث نفسها أنها ينبغى أن تكون سعيدة ، وتحاول أن تعتقد أنها كذلك ؛ ولكنها على فرط ما جاهدت وطوله لم تستطع أن تتخلص من ذلك الخاطر الخامر الذى كان لا ينفك يقول لها إن الزواج غير ما كانت ترجو وتتخيل .

وطال عليها الانتظار وثقل ؛ وملت استشارة الطبيب كل بضعة أسابيع واجتوت الطعام الموصوف ، وتقززت عنه ، وشقت عليها إدارة أمور البيت وتكلف البشاشة وهى تحس أن أعصابها كالشوك الحديد . ثم جاءها المخاض فى منتصف الليل فذعرت وأيقظت حليما ، وأصرت أن ينقلها إلى المستشفى .

وآلت سميحة أن يكون هذا آخر طفل تلده .

وأقبل عليها حليم ذات ليلة يقول « لقد كنت جميلة قبل أن تحملي ولكنك الآن ... لا أدرى .. كأنما تم حسنك .. لا أعنى أنه كان ناقصا وإنما أعنى أن فيه شيئاً جديداً يخوننى التعبير عنه »

فقالت « هذا خيال .. . لقد طال سقمى حتى نسيت كيف كانت هيئتى قبل ذلك » .

قال « كلا . فإن لك لوضاءة . وإن بشرتك لتبدو لى كأنها من الشمع . وأنت الآن زهرة يانعة ، وكنت قبل ذلك كما » ...

وانحنى على الطفل وداعب راحته الصغيرة المطبقة بأصبعه الكبير ثم التفت إليها وقال « هذه بداية طيبة ، وإنى لأرجو أن يكون أخوته وأخواته مثله صحة وصباحة » .

فقالت له وهى مقطبة « اسمع إنى لا أريد أن أجيئه بأخوة أو أخوات، وهذا حسبى ، وهو الأخير فاعرف ذلك »

فقال « لا أظن أنك جادة ... وبعد السعادة التى فزنا بها ..»

قالت « التى فزت أنت بها » .

وأصرت على أن تنقل سريرها ومهد ابنها إلى غرفة أخرى ، كأنما كان هذا لا بد منه ولا غنى عنه ، أو كأنما أرادت أن يكون مظهراً حاسماً لعزيمة ماضية وإرادة حذاء .

من ذلك اليوم صار الأستاذ حليم كأنه مقيم في فندق لا يربطه بمن فيه غيره سوى الجوار ، وفقد لفظ الأسرة معناه ، والزواج مدلوله ، وانطوى الرجل على نفسه ، ولاذ بمكتبته ، وانزوى فيها . ولم يقصر في مناشدة سميحة أن تنوء إلى القصد ، وأن يفهمها أن اتقاء الحمل لا يقتضي هذا الذي هو فراق في حقيقته ، ولا يمنع أن يعيشا زوجين وإن كان لا محيد عن الحذر واتخاذ ما يشير به الطبيب من الحيطة الوافية . غير أنها أبت كل الإباء أن تكون له أكثر من جارة ؛ فقطع الأمل وأضمر اليأس وصار يتشمم ولا يذوق ، ويشتهى ولا ينتهى له اشتهاء ، ويجزع على الحرمان ويضنيه جهد التصبر والتجلد ، ولا يجد السلوة وطيب النفس عن الزوجة العصيبة إلا بالخيال يلجأ إليه والكتاب بين يديه أو على ركبتيه ، فيزوده — ونعني خياله — بصور مما يتلهف عليه من المتع التي فاتته بعد أن ذاقها واستطابها ، واعتاض ذلك مما حرمه على إغراقه في الرغبة فيه والطلب له حتى صار ذلك له عادة وديدنا .

وكان ذلك في البداية أشبه بأحلام اليقظة ؛ فكان يجلس في حجرة كتبه ، ويتناول كتابا يفتحه بين يديه ، كيفما اتفق ، ثم يذهب يحاول أن يحضر إلى ذهنه صوراً مما استحلاه في حياته الزوجية ، ولم يكن يتمثلها على حقيقتها ، وكما كانت أو وقعت ،

بل كان يتلكأ عند بعض مناظر هذا الشريط الوهمى ، ويتريث أو يستوقفه ليطيل متعته به ، أو يؤكده ويبالغ فى إبراز الصور ، ويعمق ألوانها أو يخففها على هواه ، ويحسنها على العموم ويطمس أو يحذف جملة ، ما لم يكن يرتاح إليه . غير أن هذه الصور المستمدة من حياته مع سميحه كانت لا تخلو من تنغيص لأن سميحة لم تكن تثبت فى علاقتها به على خلق واحـــد ، ولا كانت تعنى بأن تبدى له اللطف والرقة والإقبال أو اللين والمراضاة . ولعلها لم تكن تستطيع ذلك لدخل فى أنثويتها . وكانت معه فى الأكثر والأغلب على حال المتـلـم ، على كره ومضض ، المزدرى لما يضطر إليه ، لا على حال الراغب المبتهج ببلوغ سؤل نفسه ، فيبوخ حرُّه وتصيبه من بادى ضجرها وجفوتها قرة تتركه مع ذلك يتفصد عرقا .

من أجل هذا لم يلبث الأستاذ حليم أن زهد فى هذه الصور التى يشوبها ويشوهها من كل ناحية ما ينفر منها ولـكن من أين له بصور أخرى ولا عهد له بسواها ؟ وألفى نفسه عاجزاً عن خلق شىء من لا شىء أو الابداع من غير توليد . وأبت صحراء تجاربه إلا أن تظل سباسب ، يثير طولها ولا يلقى سوى رمضائها متقلباً له فيها ؛ فاشترى مجهراً قوى العدسات ، وكانت الحجرة التى اتخذها مكتباً على الطريق ، فصار يوارب الشباك

وينظر بالمجهر من الفرجة التى بين المصراعين . وكانت أمام البيت محطة للترام ، وعلى كثب منها محطة للأتوبيس ، وقلما يخلو الرصيفان من فتيات أو نسوة ينتظرن ليركبن ويتلفتن يمنة ويسرة ، ويمشين خطوات من القلق أو الملل : فتبدو له صدورهن ، وظهورهن ، وجنوبهن ، وسيقانهن ، كأوضح وأقرب ما تكون بفضل المجهر . فإذا جاء الليل وخلا بنفسه ، حاول أن يتمثل الصور التى رآها فى نهاره ، واعتاد من جراء هذا حين يكون على الطريق أو فى الترام ، أن ينظر إلى كل سيدة أو فتاة وهى مقبلة ثم وهى مدبرة . ولكن الفتيات الناهدات كن أحب إليه لأنه وجد أنهن أقدر على ابتعاث نفسه وتحريك شعوره المكبوت . وعلى الرغم من إقباله على النظر وطول تحديقه فى القدود ، كان يجد عناءً فى إحضار صورهن إلى نفسه فى خلواته ، فقد كانت القدود المتخيلة تختلط وتتداخل ويتسرب بعضها فى بعض ، فيزوغ بصره ، ولا يستطيع أن يتشبث أو يحتفظ — على فرط التوضيح — بصورة قوام واحد لا يموج أو يضطرب أو يتداخل فى غيره فيعود وكأنه ناظر إلى إحدى تلك المرايا التى تشوه الشخص فتجعله كله رأساً أو كرشاً ، وتفعل به غير ذلك من المسخ للتسلية .

ولم يكن الأستاذ حليم همه التسلية ، وإنما كان همه سد خلة

حقيقية وإخماد ضرم يشتد منه حر جوفه من طول الفطام.

وكان لفرط حيائه، ولما نشأ عليه من الاحتشام والتعفف ولبخله أيضاً، لا يخطر له، ولا يقدر حتى لو خطر له، أن يتخذ له خليلة، أو أن يعرف إحدى هؤلاء الطوافات اللواتى يتقدن لمريدهن ويقررن لما يصنع بهن؛ أما الزواج بأخرى غير صحيحه فمسألة ليس فيها مجال للنظر.

وعلى الأيام صارت أحلام يقظته، مقرونة بأحلام منامه؛ وكانت أحلامه فى أول الأمر ممعنة فى الغمض، فإذا استيقظ لم يجد ما يذكر منها. وكان معظمها يدور على ما تشتهى نفسه ولا يجد الوسيلة إليه: ثم برز من بينها حلم صار يتكرر من حين إلى حين، ويزداد مع التكرار وضوحا وجلاء حتى كأنه خاطر مخامر. وسر هو به، فراح يعيده على ناظره فى يقظته؛ ذلك أنه كان يرى نفسه فى منامه يلتقى بأنثى على صورته هو، وكانت تشبهه فى كل شىء إلا فى الدمامة وفيما يتميز به رجل من إمرأة فكأنها العنصر الأنثوى الذى لا يخلو منه كيان رجل قد انتزع وتجسد بشراً. وكأن الأستاذ حليم قد آض بذلك إنسانين — واحداً مكتملا يجتمع فيه ويتسق عنصرا الذكورة والأنوثة على نسبة ما فى اليقظة؛ وواحداً ينشطر فى المنام شطرين منفصلين: ذكراً وأنثى، متحابين متواصلين متراضيين

متوافقين على الاستغناء بنفسيهما عما عز مطلبه فى حياة اليقظة وثقلت عليهما وطأة حرمانه : فلا حاجة به بعد ذلك إلى تألف النافرة منه ، أو مراجعة الممسكة عنه .

وكان أطيب ما وجد من هذا الحلم الذى طال ترداده حتى صار عنصراً ثابتاً فى حياته الخاصة المحجوبة ، أنه كان يفيد منه شعوراً مزدوجا ، أى شعور عنصريه المتبدين فى المنام . فازدهاه ذلك ، وخيل إليه أنه بذ الرجال الذين لا يرون ما يرى بوجدانه ما لا يجدون ، بفضل هذا الازدواج فى شخصيته ، وإدراك ما لا يستطيعون أن يدركوه ولا تخيلا . . . .

على أن هذا كان ربما أقلقه وأزعجه ، فقد كان يخشى أحياناً أن يكون مظهر شذوذ منكر ، أو آية ضعف ، أو عرضاً لمرض . وكان كثيراً ما يهم أن يعرض أمره على طبيب ، فيصده الحياء إذا لم يصده البخل ؛ ويعود فيقول لنفسه : إنه ليس من فعله ، وإنه يحدث له عفواً ، وفى منامه حين يضعف سلطان الإرادة ، أو يستقل العقل الباطن عن العقل الواعى : وإنه على كل حال لا حيلة له فيه ولا قدرة على منعه . ثم إنه لا يرى منه ضيراً فما زال هو هو فى حياته العامة ، وعلى العهد به مع الناس ، وما أنكر الناس منه شيئا ، ولا بدا عليهم أنهم يفطنون إلى هذا التحول الباطنى الذى اعتراه . بل ليس هناك ما ينبىء أنهم

واقفون على حقيقة ما بينه وبين امرأته ، فقد كانت هى بادية السعادة بما صارت إليه من الرهبانية وبولدها الوحيد الذى لا تبغى من الولد غيره .

غير أن هذا لم يطمئنه . وكيف السبيل إلى اطمئنان من لا يدرى، ومن لا يزال يقول فى صفة حاله وفى تعليلها وفيما عسى أن يكون لها من آثار، بالظن والتخمين ؟ وقد ألح عليه خاطر أفضى به إلى ضعف محسوس ذلك أنه قال لنفسه إن تمثل عنصر الأنوثة فى الرجل — ذلك الشطر المكنون أو المغلوب على أمره فى اليقظة — فى المنام له بشراً ، ليس بالأمر المألوف أو الشائع ، وإن كان العلم لا يعيا بتفسيره . والعنصران — الذكورة والأنوثة — مندمجان لا ينفصلان ، وتفاعلهما على نسبتهما فى كيان الرجل هو الذى يكسبه شخصيته الخاصة وما تتميز به من خصائص القوة أو الضعف أو غير ذلك . وهما كموجتين غابت إحداهما فى الأخرى فصارتا موجة واحدة وكلا لا يتجزأ ، أو كمصباحين متفاوتين اجتمع ضوءهما ، فالنور المنبعث منهما معاً وحدة وجملة يستحيل أن تتبين معظمها من أقلها . فإذا أمكن انفصال هذين العنصرين فيما يحس الرجل ولو فى منامه — أفلا يكون هذا تصدعا فى كيانه وإن بقى ثابتاً متماسكا فيما يرى ويحس فى اليقظة ؟ وإذا أمكن أن تتصور

تياراً مغنطيسياً يلم ذرات أحد العنصرين ويجمعها ويعزلها عن ذرات العنصر الثانى ، أفلا يكون مؤدى هذا نقض الشخصية التى كان قد أثمرها اتحاد العنصرين واندماجهما ؟ واقتنع الأستاذ حليم بهذا المنطق ، وراح يقول لنفسه إنه كان كائناً حادثاً من امتزاج عنصرين وتزاوجهما ، فصار ينقصه على الأقل متانة الامتزاج ، فهو كالبناء المتصدع المشفى على الإنهيار ، ولا مفر من أن تحدث هذه الركاكة الطارئة فى بناء الإنسان ركاكة فى قوته وفتوراً فى قدرته على العمل والاحتمال ورخاوة وقلة غناء . ولم يمنعه أن يقتنع بهذا أنه فى يقظته يبدو كما خلقه الله ولا نقص أو تهافت فيه ، ولا تغير . فقد قال لنفسه ، كأنما كان مغرى بإقناعها . إن كل ما بين اليقظة والنوم من الفرق أن سلطان العقل الواعى يفتر فى أثناء النوم ، وإن الإرادة تضعف ، فيسع ماوراء الوعى أن يتبدى ، والأحلام راجعة إلى هذا ، فدلالتها عظيمة ؛ ومن الضلال والحمق الاستخفاف بها أو إهمال أمرها . وهكذا ظل يلح على نفسه بهذا وما إليه حتى أيقن أن به ضعفاً جنسياً لا مراء فيه ولا حيلة ، ووطن نفسه على ذلك فسكنت أعصابه إلى هذا اليقين ، لطول ما ألح فى رياضتها عليه .

وكان فى وسعه أن يريح نفسه ويستعيد الثقة بها والإطمئنان إلى سلامته وبرئه من هذا الضعف لو قصد إلى طبيب ؛ فما

خلق الله الأطباء عبثاً ؛ ولكن حياءه وبخله أبيا عليه إلا أن يغرياه بالتفلسف على نفسه حتى فسد الأمر.

ومن الغريب، مع ذلك ، أن حياءه لم يمنعه أن يسر إلى صديق له أنه يجد نفسه فى هذه الأيام فاتراً لانشاط له؛ فزعم له صديقه أن هذا طبيعى لأنه يعيش بين الكتب لا فى الدنيا ؛ وجره معه مرة إلى مجلس لهو لا كلفة فيه عليه ، فألفى نفسه أميل إلى الصغيرات منه إلى غيرهن، وآنس بهن ، وأقدر معهن على إرسال نفسه على السجية ، وتناسى ما يعانيه من توهم الضعف .

ولم يتجاوز الأمر حد المؤانسة والمجالسة والمفاكهة ؛ ولكن الأستاذ حليم انصرف من هذا المجلس وهو يعتقد أن علاجه أن يلتمس مجالسة الفتيات الصغيرات فى خلقهن وأسنانهن ؛ فإن الدقة فى خلقهن توحى إليه معنى القوة ، وصغر سنهن يشجعه ويرد إليه الثقة بنفسه لغرارتهن وقلة تجربتهن — على الأقل نسبياً . وسره أن فتح الله له هذا البـــاب وهيأ له مخرجاً يعفيه من ثقل وطأة الشعور بالضعف ؛ وما من أحد إلا وهو ينشد القوة والبأس والسطوة . . أو يدعيها على صورة من الصور إذا لم تكن مما وهبه الله وآتاه . وقد كان حسب الأستاذ حليم ما آتاه الله من العقل والعلم ؛ ولكن ذلك الضعف

الحقيق أو المتوهم كان يثقل عليه وينغص عيشه ، ويأخذ على عقله كل متوجه ؛ بل هو الذى كان يوحى إليه ما يصدر عنه من قول أو فعل . فهمه فى حياته أن يداريه ، أو يعوضه إذا أعياه أن يتغلب عليه ، أو يقويه .

وقد انتهى به المطاف إلى محاسن : لأنه شام منها عقلا وفطنة تعرف بهما قدره ، وغرارة تجعلها تتطلع إليه — وقد طمست شهرته العلمية ضعفه الخفى — وتخيل القليل منه كثيراً عظيما ، فى نظرها ، وآنس منها ثقة به ، أغرتها بالبث والقول بشجوها ، ومصارحته بأخفى الأسرار وكانت تجد من بساطته وحسن فهمه وسرعة فطنته وإقباله عليها مع سنه وأدبه ما يسهل عليها ذلك ، فاتخذت منه قسيساً تعترف له ، واتخذهو منها تلميذة وارتضت هى هذا المحل ، فأقبل عليها يعلمها ويعرفها بالحياة وهو جاهل بها ، أو لعل الصحيح أنه كان يمتحن فيها نظرياته وآراءه ؛ وقد يكون الأصح أن نقول إن نوع استجاباتها له كانت دروساً يتلقاها عنها ويستفيدها منها .

ولم يكن أعجب من منظر هذا الأستاذ الضاوى المعروق الذى جلله الشيب أو كاد وهو يتأبط ذراع الفتاة الصغيرة ويرتاد بها منازه المدينة ولم يكن فى منظرهما أو حالهما ما يدل على علاقتهما . فكان الذى يرى وقار الشيب واحتشام الرجل

ويؤثر حسن الظن يحسبها بنته . والذى يرى رقته لها وتحفيه بها وضحكه إليها ولطفه فى مخاطبتها يستريب وينكر ، أو يتردد على الأقل بين طرفى الاعتقاد غير قادر على الترجيح أو الجزم .

وكان إذا لقى وهى معه بعض زملائه القدامى ، لا يضطرب ولا يتكلف بل يقول لصاحبه فى بساطة « بنتنا محاسن » ويبتسم فينصرف الرجل وأكبر ظنه أنها بنت أخ أو أخت .

على أنه كان يؤثر المكان البعيد الذى لا يطرأ فيه عليهما من يعرف ومن لا يعرف ، وكان فى ضاحية نائية ، فيقصد إليه بها فى آخر النهار ومعه زجاجة صغيرة مبططة كانت لدواء ، فيها شراب ، حتى إذا بلغه وجد عبد الفتاح بائع القازوزة ، فألقى عصاه عنده . ويحيئهما عبد الفتاح بكرسيين ، وبالثلج والماء لشرابهما ، وبخبزات مستديرة يابسة مخلوطة بالسمسم ، وقطع رقاق من الجبن لطعامهما . وكان هو يشرب قدحه ويستطيبه ويتمطق أيضاً . أما هى فكانت تذوقه وتزوى وجهها وتقبضه فيضحك ، وكان يحرص على أن يدعها تتحدث ، مكتفياً بحسن الإصغاء والابتسام المشجع ، وهز الرأس من حين إلى حين علامة الموافقة أو الفهم ، فتفتح له قلبها وتدلق كل ما فيه . وقلما كان يثقل عليها برأيه وكلامه ، ولكنه كان لا يسعه أحيانا إلا أن ينصح لها متلطفاً معها ويوجهها إلى ما هو أرشد وأحجى

وأولى بأن يتيلها مبتغاها ، أو راحة القلب من وجع الدماغ .
ويسره منها ، ويغره ، أنها كانت تصدر عن رأيه فى كل حال .

وكانت محاسن مزاحة طيبة الحديث تقبل الملاعبة ولا تضن بالقبل ، ولكنها لا تطاوع على ماسوى ذلك . وكان هو قانعاً بهذا القدر ، لا ينشد ما جاوزه ، وإن كان يشتهيه ، ولا يخطر له أن يغافلها أو يغالطها أو يستدرجها أو يشجعها على ترك التحصن ، لأنه كان يجد الكفاية من الاستمتاع فى هذا القدر من التقارب للغزل ، ويرى أن إخلادها إليه بالثقة والاطمئنان قد حمله أمانة ، وقد اعتاد الكبح والحرمان ، فأيسر الأمرين أن يمضى على ما ألف ، وأعسرهما أن يتعرج . ثم أنه كان يخشى عاقبة الطمع ، ويتق أن يهجم — لو أن فى طبعه أن يهجم — فيقعد به ما يتوهم أنه صار إليه : فقد كانت ثقته بنفسه مضعضعة .

غير أنه كان من العسير أن يلتقيا مرة بعد مرة ، وأن تكون بينهما هذه الصحبة المتينة الطويلة ، وأن يكون كل منهما للآخر ناموسه وصاحب سره ، لا ينشرح للكلام أو يتبسط فيه إلا معه ، دون أن يقع شيء مّا وقد أعان على ذلك ويسّره اطمئنان محاسن إليه وثقتها بعقله وما تتوهمه من خبرته ومعرفته ، وليّنها له طول تقاربهما للغزل ، وغلبته هو على عقله لهفته على امتحان نفسه ، وخيلت إليه اللهفة أن فى وسعه أن

يغالطها ويسترضعفه بحيلة ما ، إذا أخفق : فإنها غريرة ، خليقة أن تحسب كل شيء منه هو الغاية التي ليس وراءها غاية . وشجعه اطمئنانه إلى سلامة العاقبة ، وظل أياما متردداً مترجحاً ، ولكن ما يدفعه كان أقوى مما يصده .

وجاءته يوما تقول إنها لم تقر في شهرها وأنه لو لم يمسسها لما أوجست خيفة ، فذعر المسكين ولم يعد يدري ماذا يقول أو يصنع ، وأنحى على حظه ولعن نحس طالعه . على أن خوفه كان عليها وجزعه من أجلها ، ومن العجيب أنها ، على قلقها ، كانت هي التي تطمئنه وتحاول أن تذهب عنه الروع .

وذهبت إلى طبيب تعرفه . ولم تزد على أن قالت إنها لم تقر فوصف لها حقناً وعقاقير ؛ منها ما يفيد القوة ، ومنها ما هو للتنظيم ، فلم يفد ذلك .

وكان هو لا يستقر ، ولا يدري بمن يعوذ ، ومن يشاور ؛ فإن المشاورة تقتضي البث والمصارحة ، وذلك ما لا يقوى عليه . ومن سخر القضاء أن عياداً كان هو الذي أنقذه : ذلك أنه لاحظ عليه الاضطراب والوجوم والكمد . فسأله عن خطبه ، فتلجلج . وماذا تراه يستطيع أن يقول لأبي محاسن ؟ ولم يفته ما في الموقف من تهكم الأقدار ، فضحك ، وشر البلية ما يضحك ، وألهمه الله أن يلفق قصة طويلة عريضة

اخترع كل ما فيها إلا ما يقيمه ويقعده ، فطيب عياد خاطره ! ودله على طبيبة نظارة مدققة ، وعرض أن يرافقه إليها . ولم يكن عياد خالص النية فيما عرض ، فقد نازعته نفسه أن يرى هذه الفتاة ويعرفها ، وطمع أن تتصل أسبابه بأسبابها ، غير أن الأستاذ حليم أبى المرافقة ؛ وهل كان يسعه غير ذلك ؟ وقصد إلى الطبيبة وحده أول الأمر ليستوثق من أنها لا تعرف محاسن ، فلما اطمأن مضى بها إليها : فعالجتها علاجا حكيما فيه بعد نظر واحتياط لكل ما هو محتمل ، حتى لا تسيء إلى الفتاة من حيث تريد أن تحسن ، وكانت تطلب حقناً وتصف وصفات بلدية تعرف من خبرتها أنها نافعة شافية . وكان الأستاذ حليم يدور على الصيادلة والعطارين ينشد عندهم ما يؤمر أن يجيء به ؛ وقد أنساه الجزع بخله وكزازته فانبسطت يده بعد طول الانقباض ، وقضى أسابيع ثلاثة لا يذوق النوم إلا غراراً وإن كان ثقيل النوم كأنما يشرب مرقداً . وكان يصحب محاسن كل يوم إلى الطبيبة ، وينتظر فى مقهى قريب ، وفى ظنه أن كل جالس أو عابر ، ينظر إليه ويتعجب . وربما كبر فى وهمه أنهم يتهامسون أو يتغامزون عليه بلحظ العين وإيماءة الأصبع ، ويتساءلون فيما بينهم عمن يكون ؟ وماذا قذف به على هذا الحى ؟ فكان يلهج فى سره بالابتهال إلى الله أن « يتوب » عليه ويعفيه من الحاجة إلى غشيان هذا المقهى .

ودعته الطبيبة إليها يوما وأنبأته أنه لم تبق لها حيلة ، وأن عليه أن يقصد إلى طبيب إخصائى ، فما يسعها هى فوق ما صنعت ، وأنها تخشى على نفسها ، وعلى محاسن أيضاً ، إذا هى حاولت شيئاً آخر . فتوسل إليها ، والدمع يجول فى عينيه ، أن ترشده إلى هذا الإخصائى : فهزت رأسها وقالت بلهجة الأسف والإشفاق ، إنها لو كانت تعرف أحدا لما اجترأت أن تتوسط له فى مثل هذا الأمر ، ولكنها دلته على طبيبة أجنبية قد « يهديها » الله فتسدى إليه هذه اليد .

فمضى بمحاسن إليها ودفعه اليأس وخوف الإخفاق إلى مصارحتها بالأمر كله ، فما بقى من هذا بد ، عسى أن ينفعه عندها الصدق ويعطفها على الفتاة فى محنتها . وكانت تصغى إليه وهى مطرقة ، تزوم ، وهو يتفرس فى وجهها لعله يلمح فيه ما يستبشر به ؛ ولما انتهى قال « هذه هى الحكاية » واضطجع وفوض أمره إلى الله .

فقالت له « اسمع يا بك » أنا طبيبة ، نعم ؛ ولكنى لا أستطيع أن أتكلف مثل هذا الأمر ، لا جهلا بل خوفا . غير أن الفتاة جديرة بالرحمة فإذا شئت استشرت فى أمرها طبيباً ، وسنرى ما يكون ، فعودا غداً فى مثل هذه الساعة .

وخرج لايدرى أيطمئن أم يقلق ، وثقلت وطأة هذه

الجرة عليه ، حتى لتمنى أن يقنط فإنه أرحم . وكانت محاسن تضحك منه ، فيزجرها ويروح يهول عليها بما يقدر أنه سيكون ويسهب فى الوصف ويتوسع فى البيان كأنما يجد لذة فى تعذيب نفسه ، حتى يكاد يخلع قلب المسكينة .

ولكن الله لطف بعبده ، والله يضع رحمته حيث يشاء .

وتشهد أستاذنا حليم ، ولكن ماعانى من الكرب جاوز طاقته ، فآلى لا يعود .

وصارت محاسن بعد ذلك أهدأ ، وأكثر اتزاناً ، وأقل خفة . فلو رآها الذين كانوا يقولون إنها طامحة الطرف لا تبالى أن تدنو من الرجال لتعجبوا ؛ وأنى لهم أن يعلموا أنها امتحنت أقسى امتحان ، وأن عزمها كان مستقراً على الانتحار ، وأن تكلفها أن تظل ضاحكة السن قد كلف أعصابها شططا ؟

وأنى لمحمود أن يعرف السر فيما صارت تتعمد أن تبديه من التبرم به والإعراض عنه ؟

الفصل الثانى

— ١ —

ولم تكن محاسن أول من عرف محمود أو أحب أو كاد يتزوج ، أو خاب له فيها أمل ؛ فقد سبقت له علاقة بفتاة مدنرة مدرهمة . ولم يكن يعرف حين عرفها — أن لها مالا ، أو يعبأ بذلك . وننصف محموداً فنقول إنه يؤمن بشيئين — أن من المهانة أن يكون الزوج فقيراً وامرأته غنية ؛ وليس معنى هذا أن على المرأة الغنية أن تنزل عن مالها لبعلها حتى يعتدل الميزان فى رأى محمود ، وإنما معناه أنه ليس مما يحفظ مروءة الرجل ويصون كرامته أن يتزوج امرأة لمالها . وقد يكون هذا رأياً عتيقاً ولكنه رأيه الذى يذهب إليه بدافع من إدراكه الخاص لمعنى الكرامة . والثانى أنه كان — على كونه مهندساً — يؤثر أن يكون صحافياً ، ويظن ذلك خيراً له وأجدى عليه من تطبيق العلم على العمل : وأبى أبوه له هذا كل الإباء ، وأنكر أن ينفق على تعليمه ما أنفق ليكون شيئاً محسوباً فى الدنيا فيصير « جورنالجياً » ، ووفق محمود بين هواه وهوى أبيه واتفق مع صحيفة على أن يكون « مراسلها » من ميدان السباق ؛ وفاز بفضل ذلك ببطاقة تخوله دخول الميدان من غير أن يؤدى الرسم

المفروض . والآن نجيء إلى ماصار يؤمن به وهو أن الصحافى — فقد أصبح صحافياً بشهادة بطاقة السباق — لا يجوز له أن يتزوج ؛ ولو كان أمر التشريع إليه فى ذلك الوقت لجعل الصحافة من موجبات العزوبة كبعض الأمراض .

ولم يكن يعرف عن الخيل شيئاً ، ولا كان مطالباً بهذا العلم ، وكان حسبه وحسب الصحيفة أن أندية السباق معارض جمال وأزياء وملتقى كل من هب ودب ؛ ولم يكن عليه إلا أن يجعل باله إلى مناظر الناس لا إلى الخيل وإلى ما يكون منهم ؛ وكفى بهذا « تعليقاً » على السباق . .

وقد لقى مرة واحداً من الأجلاف الذين تراهم فى كل مكان يحسن أن يخلو منهم فسأله — أى الجلف — بلا سلام أو تحية « أشر علىّ — على أى حصان ألعب ؟ »

قال محمود « وهل أنا أعرف ؟ »

وكان صادقا فى نفى العلم بالجياد وقيمتها فى السباق ؛ نعم كان يراهن ، ولكنه لم يكن له فى الاختيار فضل ، فقد كان له صديق من المدربين لايزال يتحفه بأسماء الجياد التى يتوقع لها الفوز . فيراهن بما شاء على ماشاء ، ويجعل عينه كما أسلفنا ، لاعلى الجياد ، بل على الناس : لأن القول فيهم هو العمل الذى يؤديه للصحيفة التى منحته البطاقة — أو الكارنيه — ويربح أو يخسر — يربح

فى الأغلب بفضل هذا المدرب ، وهو غير فاهم لماذا ربح أو خسر .

فقال — أى الجلف أيضاً — بابتسامة ثقيلة : « سم أى حصان ، ولو بثلاث أرجل .. يكفى أن تختاره ليكسب » .

قال محمود : « ماذا تعنى ؟ » .

قال الجلف وهو يضحك « إنه يسأل ماذا أعنى ؟ أعنى أنك ولدت وفى فمك ملعقة من فضة » .

ومضى عنه وهو يطوف ويغمز بعينه ، فلو استطاع محمود أن يخنقة وهو آمن لفعل ...

(٢)

ولم يكن محمود فى ذلك الوقت قد فاز بوظيفته فى الحكومة ، فإن أباه كان لايزال يسعى ، فوسعه — أى محمود — أن يعد نفسه صحافياً محترما لا هاويا ، ولما انتقلت الخيل إلى الأسكندرية انتقل معها .

واتفق يوما أن كان يستريح على رمال الشاطىء فى « جليم » بعد أن سبح حوالى ساعة ، وكاد النعاس يغلبه ، وهو مستلق على ظهره وذراعه على عينه ، وإذا بصوت ناعم موسيقى النبرات يقول :

« والله عال .. كأنه فى بيته ، وفى غرفة نومه ، وعلى سريره ، ترى بأى شىء يحلم ؟ » .

ولم يخطر له أنه هو المقصود ، فإن الناس كثر . ولكنه تنبه ونحى يده عن عينه ورفع رأسه قليلا لينظر ، ثم استوى جالساً ، فقد رأى فتاة عليها برنس جاثية على ركبتيها وعاكفة عليه تتأمله كأنه حيوان غريب، قذف به الموج .

وقال: « معذرة . من أنت ؟ هل أعرفك ؟ » .

قالت وهى ترد الضحك وتغالبه : « كلا .. ولكن المظلة تعرفنى » .

فصعد طرفه إلى فوق ، فإذا هو تحت مظلة كبيرة مخططة لم يفطن إلى وجودها ، ولم يشعر بها حين ارتمى على الأرض وقد تحلل به الأعياء وأنهكه جهد السباحة ، ولم يسعه إلا أن يعتذر للفتاة ويرجو منها الصفح ، وهم بالنهوض فردته بإشارة وقالت : « لاتذهب ، ولكن تنح قليلا فإن الشمس حامية » .

فوسع لها ، فدخلت تحت المظلة وقالت : « كلا ، لاتذهب فإن لك فائدة ، إن ههنا شبانا يلاحقوننى ويضيقون علىّ » .

قال : « مجانين . . . » .

فرمت إليه نظرة فيها بعض الحدة ، ولكنها لم تخل من ابتسام ، ومضت فى كلامها فقالت : « وقد خطر لى ، حين

رأيتك ممدداً تحت المظلة أن أتخذ منك مخبأ يقيني تطفل هؤلاء ال . . . ،

فقال على سبيل التلقين: « المجانين»

فابتسمت وأطرقت ، وجعلت أصابعها تعبث بالرمل .

وسألها: « أليس معك هنا أحد؟»

قالت: « أمي ، ولكنها لا تفارق الكابين – يمكنك أن تراها من هنا (وأشارت إلى صف الكابينات) وبالها طويل ، وصدرها واسع وصبرها لا ينفد »

قال مقاطعاً: « مسكينة . .»

قالت: « من ؟ »

قال: « أمك»

قالت : — مستغربة : — « وما الذى يجعلك تظن أنها مسكينة ؟ »

قال : « يظهر انها احتاجت أن تروض نفسها على الصبر »

قالت : « آه . . »

ثم كأنها تنبهت إلى معنى فاتها فسألته « إيه ؟ ماذا تعنى ؟ »

قال : « لا شيء . لا شيء . استمرى ، فقد أعرناك أذننا »

قالت بابتسام: « أشكرك . ما اسمك؟ ومعذرة فلست أستطيع أن أظل أدعوك « يا حضرة . . . »

قال : « هل تصدقيني إذا قلت لك أن اسمى محمود ؟ »

قالت ورفعت حاجبيها المرسومين بالقلم ، مقدار ملليمتر :
« ولم لا أصدق ؟ محمود ماذا »

قال « ألا يكفى اسم واحد ؟ أقسم لك أنى لست هارباً من البوليس ، ولا من هؤلاء الـ . . . »

وأشار بيده إشارة عامة شملت كل من على الشاطئ ، أو فى الماء ، فقالت « المجانين . هه ؟ »

فلم يفته مرادها ، ولكنه تجاهله وتغابى وقال : « على كل حال اسمى ليس سرا ، وإن كنت لا أرى أن أكتبه على لوح وأرفعه على سارية ، وما أظنه ينفعك العلم به ، فما هو أكثر من بطاقة أعرف نفسى بها ، فتفضلى . . . محمود فهمى »

قالت « وأنا اسمى سميره . . . »

قال : « اسمعى . إن خير وقاية لك من هؤلاء ا . . ا . . »

قالت : « المجانين »

قال : « أشكرك . . المجانين ، هى أن تنزلى إلى الماء وتسبحى »

قالت : « هذا هو الذى يجمع الذئاب على الحمل ، فإنى لم أتعلم السباحة ، وكل ما أستطيعه ، هو أن أقف أو أقعد فى مكان غير عميق وأخبط الماء بيدى ، فيجىء هؤلاء ويحتاطون بى ويعرض بعضهم على أن يعلمنى السباحة . . . »

فقال محمود : « أنت أخيب الخياب ، أعوذ بالله »

فقهقهت ثم قالت : « لماذا ؟ هل السباحة ضرورية جداً ؟»

قال : « أظنك لاتستطيعين أيضاً حتى ولا أن تقلى بيضاً ؟»

قالت : «اسمع يامحمود ! — سأسميك محمودا بلا كلفة ، فإن حديثك يعجبنى ، وأكبر ما يعجبنى منك أنى لا أعجبك . . هذا واضح . . . . »

قال مقاطعاً : « إن قوامك جميل »

قالت وهى تفحص قوامها بعينيها : « ألا تظن أنى أنحف عما يجب ؟ »

قال وهو يدير عينه فيها : « نعم ، قليلا . لقد كان لى زميل فى المدرسة له مثل قوامك وكنت أضربه علقة كل بضعة أيام ، ولكن ساقيك أجمل ، لا محل للمقارنة فى الحقيقة . وصدقينى إذا قلت لك إنه مامن فتاة فى هذا الزمن تستطيع أن تصل إلى شىء بغير ساقين جميلتين . . »

قالت : « هذا ما أقول لأمى كلما قالت لى إن ثيابى قصيرة ؛ يظهر أننا سنتفق »

قال : « لا تتسرعى . . »

قالت : « لا تخيب أملى من فضلك . . بماذا تشتغل ؟ »

قال : «صحافى . وإذا أردت الدقة فإن كل عملى هو أن أذهب

إلى نادى السباق وأصف لصحيفتى جماعة الإنسان لا جماعة الخيل المحتشدة هناك » .

قالت « لا يبدو عليك ذلك . هل تعلم أن الصحافيين ثقلاء ، – ولكن الحق على أمى ، فإنها لا تزال تدعوهم إلى حفلاتها – لا أدرى لماذا ؟ أظنها تتوهم أن ما يكتبونه عن حفلاتها يساعد على تزويجى بسرعة . . ولكن المسألة هى أننى لا أريد أن أتزوج ، هل تعرف ماذا أتمنى أن أصنع اليوم ؟ أذهب إلى السينما مع واحد مثلك لا أعجبه فلا يغازلنى ، ثم أتعشى بسندوتش فول مدمس . . »

قال : « ولم لا ؟ إنى غير مشغول فى هذا المساء » .

قالت : « لا أستطيع ، مع الأسف . . لقد دبرت لى ماما عشاء مع عمدة من معارفنا ، وابنه . . ياحفيظ . . أسنان بارزة وعين حولاء وتمتمة . . . وإنى لأخشى أن أضطر إلى التزوج بواحد كهذا لأستريح من هذه المحاورات والمداورات »

قال : « هل تريدين أن تكونى عمدة ؟ »

فضحكت ثم قالت : « إنما أريد أن لا أقابل أحداً يريدأن يتزوجنى »

قال : « لابد أن هناك كثيرين لايريدون فلا تيأسى »

قالت : « ولكن كثيرين يا محمود يعدوننى جميلة . . »

قال: «لا تصدقيهم ، فإنهم يخدعونك ، وربما كانوا يحاملونك ولعلهم يظنونك غنية ، فهم يطمعون فى مالك» .

قالت : « ولكنى غنية . . »

قال : « آه . . انحل اللغز »

فسألته : « ألا ترانى على شىء من الجمال ؟ »

قال : « لا أدرى ، على كل حال لست أحب اللون الأسمر . »

— ٣ —

كانت هذه هى البداية .

وقد التقيا بعد ذلك مرات على الشاطىء ، فى جليم أيضاً ، فإنه حيث يكون الكابين يكون صاحبه أو صاحبته والذين يحومون حولها .

وفى إحدى المرات استبقته ، وجاءت بحقيبة كالتى يتخذها التلاميذ سوى أنها من جلد نفيس ، وأخرجت منها طائفة من السندوتش ودعته إلى مؤاكلتها وقالت له وهى تقضم « اسمع . »

قال : « كلى أذن . . . هاتى »

قالت : « خطرت لى فكرة . . . إنك تريد أن تقضى بقية الصيف فى لبنان . هه ؟ »

قال : « أتمنى . . »

قالت : « ولكنك لا تستطيع » .

قال : « صدقت ، العين بصيرة ، واليد قصيرة ، وأبى يعيى لى وظيفة لأكسب رزقى بعرق هذا الجبين العريض » .

قالت : « تستطيع . . . »

قال : « ماذا ؟ »

قالت : « أن تترك لى السندوتش بالبطارخ فإنى أحبه . . »

قال : « الضيف مفضل يا آنسة سميرة »

قالت : « اسمع . اذهب إلى لبنان . »

قال متمثلا : « ملنا أم نبا بنا ، أم جفانا ، وقلانا واعتاض منا سوانا ؟ ألم أقل لك أن العين بصيرة . . . . »

قالت : « ولكنك تستطيع . . . ألا تفهم ؟ »

قال : « أتراك تعرضين علىّ قرضاً حسناً أو هبة ؟ »

قالت : « بل أعرض عليك الزواج . . »

قال : « هـذه هى التى لا تريد أن تتزوج ؟ ؟ . الاقـتراح مرفوض والرفض مقرون بنصيحـة — أن تذهبى إلى الطبيب حالا . . »

قالت : « اسمع لا تـكن متعجلا . »

قال : « أنا ؟ أنا المتعجل ؟ »

قالت « نعم ، اسمع تتزوجنى وأتزوجك »

قال : « مفهوم . . . زواج متبادل . . لا من ناحية واحدة فقط ، مرة أخرى أقول يفتح الله . »

قالت : « ولكن ماما موافقة . . »

قال : « شيء جميل . . إذن فلتتزوجك هي . . »

قالت : « أنت أنانى ، وقاس ، وقلبك كالحجر »

فلم يسعه إلا أن يضحك فقالت: « إنى أعرف أنك لا..لا.. إنى لا أعجبك ، ولكنى لا اطالبك بشيء ، ستكون بعدالزواج حراً ، تحيا وحدك ، وتذهب إلى حيث تشاء ، وتصنع ما يحلو لك . وكل ما أبتغيه هو أن أستريح من الذئاب التى تحوم حولى وتلوب ، ومن المداورات التىلاتنتهى ، وإذا شاء الله ووجدت الرجل الصالح ، دعوتك أن تطلقنى لأتزوجه . . . فأى بأس فى هذا ؟ ألا تحب أن تساعدنى ؟ ألا تريد ... »

فقاطعها قائلا : « إن كل ما أريده الآن — حالا — هو جرعة من الكونياك لو كان إليها هنا سبيل »

ولم يتزوجها لأنه لم يستطع أن يقنع نفسه بهـــذا التمثيل الجنونى ورأى بعد ذلك أن ينأى عنها ويتقى لقاءها ، واتقاء الفتنة خير من التعرض لها .

وذهب الصيف ، وجاء الشتاء ، وانتقل ميدان السباق إلى الجزيرة ومصر الجديدة ، وهناك كان يرافقها شاب لا يعرفه

ولا يستخف ظله ، ودعته مرة إلى الشاى فى منزلها ، فاعتذر ، فألحت ، وقالت إنها تريد أن تعرفه بخطيبها ، وأنها حدثت خطيبها عنه كثيراً فسألها : « من عسى أن يكون ؟ » .

فأشارت إلى الشاب .

فقال محمود مستغرباً : « هذا المخلوق ؟ » .

قالت : « ليس بمخلوق ، إنه حمدى ، ثم إنه يحبنى ويعبد التراب الذى أمشى عليه » .

قال : « ظاهر ، ظاهر ، فهل تريدين أن أهنئك ؟ »

قالت : « لم لا ؟ ألا يمكن أن تقول لى كلمة ظريفة ؟ »

قال : « على عينى ورأسى ، ما أرخص الكلام ، مبروك ، مبروك ، وهنيئاً له . . . »

قالت : « لاتتهكم . . »

قال : « وماذا أصنع لو كنت ترمين نفسك على هذا الوقاد ؟ . . »

قالت : « إنه ليس وقاداً . . . إنه موظف . . . ثم أنى لم أرم نفسى عليه . . هو الذى . . . »

قال : « هذا ألعن . . يضحك عليك هذا البراد ؟ »

قالت ودبت برجلها : « ليس براداً فلا تكن فظاً ، ثم أنه يحبنى . . . »

قال : « وأنت ؟؟ »

قالت : « خطيبته » ولم تزد .

وذهب إلى بيتها ، إجابة لطلبها ، ولم يكن خطيبها هنـاك ، فاستغرب محمود أنه سره أن لم يجده ، واستقبلته أمها ، وشرعا يتـكلمان الـكلام المألوف ، ويتبادلان الملاحظات المعتادة من الجو وما إليه ، ثم استطردا ، بطريقة ما ، والحديث ذو شجون ، إلى سميرة وخطيبها ، فغاظه وأحنقه أن يسمع من هذه السيدة التى كان يظنها عاقلة حصيفـة ، ثناء على الخطيب ، ولا ندرى ماذا كان يتوقع غير هـذا ولـكن الذى ندريه أن الأم نظرت إليه نظرة لم يفهمها وقالت له :

« إن سميرة فى الحديقة ، فاذهب إليها ، وقبـل أن تذهب أحب أن أقول لك إنى لم أر فى حيـاتى أغبى ولا أعمى ولا أطرى ولا أضعف منك ، ويخيل إلىّ أن جسمك مصنوع من الجبن الحالوم لا من اللحم والعظم — والآن اذهب . »

فخرج إلى الحديقة وقد فتحت له هـذه النعوت الجميلة باباً من التفـكير كان موصدا . .

وألفى سمـيرة مسندة ظهرها إلى جـذع شجرة ، وساعداها مطويان على صدرها ، تحت ثدييها الناهدين ، وهى شاخصـة لا تطرق فوقف إلى جانبها يتأملها وهى كأنهـا لا تشعر به ،

ولا تدرك أنه موجود ، فتعجب ، وكان فى وقفتها من السحر ، وفى خطوط قوامها من الجمال والفتنة ما لم يفطن إليه إلا الساعة كأنما ما رآها قط من قبل .

وتمثل له ، وهو واقف حيالها ، شخصان — جده الأعلى الذى كان يسكن الكهوف ويعمل بالفأس ، ولا يرتدى إلا جلد الحيوان وشخص آخر منتزع من ثقافة الزمن وحضارة العصر ، عرف فيه نفسه .

وكان الأول يقول له وهو يحرك الفأس « أقدم يا شيخ ما هذا الجبن ؟ ألم أنصح لك من قبل مرات أن تعامل هذه الفتاة بالطريقة التى جربت واختبرت ملايين المرات ونجحت فى كل مرة ؟ ولكنك لم تسمع وتطع ، ولهذا فقدتها ... »

وكان الآخر يقول : « مهلا ، مهلا . قد تكون هذه طريقة صالحة فى عصور الاستيحاش والهمجية ، ولكننا اليوم فى القرن العشرين والفتاة على كل حال مخطوبة ، فكيف تشير عليه بأن .... »

فيقاطعه الجد الأعلى ويصيح به : « مخطوبة أو غير مخطوبة .. هذا لا قيمة له ... إنى أقدم له نصيحة ثمينة ، وأشير عليه بالخطة المثلى »

فيقول الآخر : « لا يسعنى إلا أن أحتج وأعترض على هذه

النصيحة وتلك الخطة ، وإن على صاحبنا هذا أن يتقبل حظه بالصبر والرضى . »

فيصيح الجد الأعلى : «كلام فارغ ، إن الذى عليه أن يفعله هو أن يجذب هذه الفتاة إليه ويطوقها ولو كان لها ألف خطيب وخطيب .. ولو كنت فى زمنى ، وفى سنى ومبعثى ، لما رأيتنى أتردد فاسمع منى ياهذا ، وأطعنى ، فلن تندم ! »

وفى هذه اللحظة تنبهت سميرة إلى وجوده ، أو أظهرت أنها تنبهت ، وجعلت تتمتم « محمود ... محمود ... »

ولا يدرى محمود كيف حصل هذا ، ولكنه شعر أن الحديقة رقصت ، فأما الأشجار فكانت تطول وتقصر ، وأما بساط الروض فكان يدور ، ويدور ، ولكنه هو كان ثابتاً — لايدور ولا يضطرب — وبين ذراعيه سميرة .

وسمع نفسه يسألها : «وحمدى هذا ما الرأى فيه ؟ ماذا عسى أن تقولى له ؟ »

قالت : « ألم تقل لك ماما ... »

قال : « نعم ، قالت لى إنى غبى وأعمى ومصنوع من الجبن الطرى »

قالت وهى تضحك : « إنها ظريفة ، أليست كذلك ؟ »

فسألها : « أهذا رأيك فى الظرف ما هو ؟ »

فضحكت وقالت: «لقد كادت تجن لأنك أعمى، وغبي، و..»

قال متمما: «ومصنوع من الجبن الطرى»

قالت: «حمدى هذا ناظر الزراعة. وقد استقدمته ماما لتفتح لك عينيك به، ولكنه كان لابد من استعمال السكين على ما يظهر لشق جفونك..»

فصاح محمود: «هل تعنين....»

قالت: «أعنى أنى أعددت لك سندوتش بالبطارخ... تعال..»

وجرته من يده.

وتنهد ممثل الثقافة والحضارة فى القرن العشرين، وغاب..

أما الجد الأعلى فكان يهز رأسه مسروراً، ويحيى محموداً بالفأس..

— ٤ —

ودارت الحياة بعد ذلك دورتها المألوفة بضعة أيام، وأفضى محمود إلى أهله بخطبته. فأما أمه فسرها أن ابنها يوشك أن يكون زوجا ورب أسرة، وإن كان قد أقلقها غنى الفتاة، وتحسرت على ما كان لبعلها من مال ضيّعه: وكانت قبل ذلك قانعة راضية قريرة العين، لا تأسف على مافات، ولا تتبرم

بحاضر. ولا يعنيها إلا أن ابنها أتم تحصيله وأنه سيكون موظفاً ويعيش فى دعة وخفض، ويرتقى ثم يرتقى، ويغص بالمال والسعة والأهل، وإذا به ينبئها أنه خطب فتاة ذات ضياع عظيمة، قبل أن ينال الوظيفة المشتهاه ويضع قدمه على أولى درجات السلم الذهبى. وإنه لجدير بالسعادة وأهل لكل خير، وقد يكون صحيحاً ما خبرها به من أن الفتاة تحبه. المحقق أن هذا هو الصحيح وإلا لما اختارته وآثرته على عشرات من الشبان كلهم أحسن منه حالا، غير أنها مع ذلك خشيت أن يصغر أهله فى عيون أهلها إذا لم يصغروا فى عين الفتاة، من جراء هذا التفاوت فى الرزق.

وأما أبوه فلم يسره أن فتاه ذهب فأحب فخطب من غير أن يشاوره؛ وصحيح أنه لم يكن يملك أن يرجىء الحب حتى يسأله، ولكنه كان خليقا أن يدرك أن له أباً يراجع فى مثل هذه الشئون الكبيرة، وأن لا يغيب عنه أنه مازال مكفياً — ولا يقول عاطلا — لا مال له يعيش منه، أفلا انتظر حتى تسلَّمَ الوظيفة ثم فكر فى اختيار الزوجة؟ وما سرّ جعل فتاةً واسعة الثراء تؤثر فتى لاعمل له ولامال وليس ينقصها المعجبون ولا الطامعون؟ ولو أن أرض الرجل كانت قد بقيت له لما عبأ شيئاً بضياع الفتاة، ولا اكترث لما بين الثروتين من

التفاوت ، فإن شيئاً ولو قليلا خـــير من لا شيء ، والعبرة بالاستغناء ، وبأن المرء يَحُور إلى شيء فيه كفاية وعليه اعتماد ، وبهذا يسعه أن يتحفظ بكرامتـه ويكفل الاحترام لنفسه ، فيواجه الفتاة وهو ثابت على قدميه ويقول لها بلسان الحال : « إنى لا أبالى كثرة مالك وإرباءه على مالى ، فإن ماجاوزمقدار الحاجة ، حتى دون التوسع ، زيادة لا انتفاع بها ، وحسبي ماعندى فنحن كفؤان فى ذلك النصيب من المال الذى إليه الحاجة ، وبه يطيب العيش ، ولو كان لك فوق ذلك مال قارون لما فضلتنى به »

أما الآن . . ؟

وهز الرجل رأسه آسفاً متحسراً منكراً على ابنه أن يزج به بغتة فى هذا المأزق الحرج .

ولم يعجبه مما قصه عليه محمود وهو يضحك ، ما توهمه ائتماراً به من سميرة وأمها ، أوهكـذا تصنع البنات الطيبات ، وأمهاتهن الصالحات ؟

أفلو كانت لنا بنت كسميرة أكانت أم محمود تطاوعها هذه المطاوعة ، وتملى لها هذا الإملاء ، وترخى لها الحبل على هذا النحو ، وتشجعها على التحبب إلى الفتى الذى عليه العين ، وتزيد فتدعو اليها ناظر الزراعة أو الضيعة وتأمره أن يمثل

دور الخطيب المنافس لمحمود ، وتتركهما معاً ؟ ومن يدرى ؟ ألا يمكن أن يكون هذا الناظر قد قبلها وعانقها نزولا على مقتضيات التمثيل وما يتطلبه إتقان الدور ؟ ألا يمكن أن ينقلب التمثيل حقيقة ، والهزل جداً ؟ سبحان الله العظيم ! ؟ وأى فتاة تكون هذه التى تأمر الرجل أن يقبلها ؟ بل التى تجيء بموظف عندها وخادم لها وتقول له هذا فمى فقبله ، وهذا صدرى ضمه إلى صدرك ، وأحطنى بذراعيك وشد على خصرى ؟ أعوذ بالله ! وأى أدب هذا الذى أدبتها أمها ؟ وبأى عقل تسمح بهذه المهزلة التى لا يبعد ولا يستغرب أن تنقلب فاجعة ؟

ولكن أبا محمود لم يصارح محمودا بما ساوره من الهواجس ، وحك فى صدره من الشكوك ودار فى نفسه من بواعث القلق ، واكتفى بأن يعاتبه ويلومه فى رفق على هذه المباغتة ، وينصح له بالتريث والأناة زمناً كافياً حتى يفوز بوظيفة من جهة ، ويدرس أخلاق الفتاة وسيرتها درساً أوفى من جهة أخرى ، ثم دعا له بخير .

ولكن الشباب هو الشباب ، فلم يتريث محمود ولم يتأن ، ولسنا نعنى أنه عقد العقد ، وإنما نعنى أنه صار لا يفارق سميرة فى ليل أو نهار أو فى معظمهما ، وكان لابد أن تتعارف الأسرتان ، وتتزاوران . فأما أسرة سميرة فرحبت بالأمر ،

ولم يخطر لها أن غناها مبعث قلق لأسرة محمود، فلعل الذى حبب محموداً إليها أنه كان بادى الزهادة فى مالها، قليل الاحتفال به — وأما أسرة محمود فاضطربت للقاء الأول والزيارة الأولى.

وقال محمود لأمه ذات مساء: «لماذا لا تجيئين معى إلى بيت سميرة؟».

قالت: «كلا. اذهب وحدك، وخذ معك المعطف فإن الليلة باردة»

قال: «سأفعل».

فسألته: «ماذا تصنع هناك كل ليلة؟..»

قال: «أجلس معها، أو نخرج معاً إلى سينما أو غير ذلك..»

قالت: «من يؤدى النفقات؟»

قال: «ماذا تعنين؟»

قالت: «أعنى أنه لا يليق أن تؤديها هى عنك»

قال: «من قال لك إنها تؤدى عنى شيئا؟ وهل أحتاج إلى مالها لأدخل معها داراً للسينما؟»

قالت: «لا تغضب، فإنما كنت أخشى...»

قال: «إنك لا تحبينها»

قالت: «إنك مخطىء، فليس الذى بى لها أنى لا أحبها، وكل ما فى الأمر أنى لا أراها تصلح زوجة لك»

فنهض مستاء ، وخطف المعطف . وقال بحدة وهو يخرج : « لافائدة من هذا الكلام ، سأتزوجها والسلام »

ولم يطلع محمود سميرة على شيء من هذا ، وما عسى أن يقول لها ؟ أيقول لها إن أبويه لا يرضيان بها زوجة له ؟ وإذا تشجع وفعل . ؟ ؟ ولكن هذا مستحيل .

ووطن نفسه على الصبر حتى ينال الوظيفة فيسعه حينئذ أن يكون حراً فيما يفعل ويترك .

وسألته سميرة مرة فى أعقاب سهرة طويلة : « ماذا عساك تقول لماما حين تدخل عليها فى مطلع الفجر ؟ . »

قال : « إننا كنا نتحدث . . »

قالت وهى تضحك : « ولكن هذا لم يكن كل ما تفعل ! . »

وتعانقا ، وكانت تضحك وهى تدنى فمها من فمه ، وكان جسمها كله ينتفض ، وإذا به يجمد ويتخشب ، ويقصيها عنه ويحدق فى عينيها ويسألها : « ماذا تعنين ؟ »

فتعجبت ، وهزت رأسها مستفسرة . فقال وهو يدع ساعديها يهويان : « يظهر أنك مللت صحبتى ، وإلا فما سؤالك عما أقول لأهلى حين أعود إليهم من عندك ؟ ماذا يدعو أن أقول أنا شيئاً أو أن يسألوا هم عن شيء . . ؟ . »

فاعتذرت ، وأسفت لأنها قالت ما يمكن أن يحمل على هذا المحمل .

وألفاها بعد ذلك أكثر جداً وتحرزاً فى الكلام ، وقل ضحكها ، وبدت كأنما يدور فى نفسها شىء ، وصارت تصمت ، وتنطوى على نفسها ، فتزداد جمالا وفتنة — وبعداً أيضاً ، وأحس محمود أن هذا جانب لم يكن يتكشف له من قبل ، وأشفق أن تظل ناحية من نفسها محجوبة عنه مزوية عن عينه ، لا يطلع عليها ولا يستطيع أن ينفذ إليها .

ورافقها ذات ليلة إلى البيت بعد أن شهدا معاً رواية سينمائية وكانت يدها فى يده ، لم تتخل عنها وهى تفتح الباب ، كأنما تدعوه بذلك إلى الدخول فقال : « أخشى أن نزعج ماما » — يعنى أمها — .

فقالت « لا تخف ، ولا تخافت بكلامك ، فإن نومها ثقيل »

ودخلا ، فقالت وهى تخلع معطفها :

« لقد قابلت ماما (تعنى أمه هو) اليوم فى متجر »

فسبقه لسانه وسألها : « ماذا كان منها ؟ ألم تكن لطيفة معك ؟ »

قالت « نعم فإنها سيدة مهذبة ، ولكنها يامحمود لاتحبنى ... ولا ترضى عنى ... لا أدرى لماذا ؟ ولا أعرف كيف

أفوز برضاها وأكسب حبها ... مشكلة ... »

ونحّت وجهها كأنها تستحي أن تنظر إليه، أو تخشى أن تقرأ فى وجهه مصداق كلامها، وهى تقول ذلك.

فجذبها من ذراعها، وطوقها، فلم تلن له، وانثنى رأسها على صدرها، ورأى عينيها مغرورقتين، فلثم جفونها وخديها وشفتيها وجبينها، وجعل يهمس: «إن أمى لا يسعها إلا أن تحبك ... لا مفر من ذلك ... إنما يخيفها غناك وفقرنا ... ولكن هذا لا قيمة له، فما لنا بمالك شأن ... ولن أتخلى عنك أبداً ... »

فتفلتت من عناقه بلطف، وقالت بصوت هادىء متزن النبرات: «ليس يطيب لى أن أفسد ما بينك وبين أبويك»

قال: «ولكن هذا لن يكون، فلماذا تتوهمين أن هذا يمكن أن يقع؟ ألست سأتزوج يوما ما؟ وكيف يعنيهما أن تكون زوجتى غنية أو فقيرة؟ إنها حياتى لا حياتهما، وقد كاد يتم أمر الوظيفة، فلا حاجة بى إلى معونة منهما»

وكأنما جرى ببالها شىء فضحكت وقالت: «لن تتخلى عنى يا محمود؟ أيّنا الذى قنص صاحبه؟»

فضمها إليه ضمة قوية وأهوى على شفتيها بالقبلات الحرار، وكانت تضحك وتعالج أن تفلت وهو يأبى أن يدعها، فقد

كانت كالخائف من مجهول لا يدرى ما يهجم عليه منه ، ثم أفرج عنها وخلاها ، تخيل إليه أنها تخفى عنه شيئاً — ذلك الجانب المستتر الذى لا يتبدى ولا يتكشف ، فعاد يجذبها ويضمها ، وهو يشعر أن بينهما حجازاً على الرغم من هذا التدانى . وكانت تبادله قبلاته ، وتلتقم فاه كأنما كانت هى الرجل، وتقر له وهو يهصرها ، وتتمتم بما لا يتبين ، ولكنه كان يشعر أن بها الليلة غموضاً واعتياصاً وبعداً .

ثم قالت له وهى تسوى شعرها : « يحسن بك أن تذهب الآن . »

وكان يفرك عينيه ، كأنما يستيقظ من سنة ، وإن كان تام الإدراك لقربها والشعور بحرارتها ، وفتنة صباها ، وهم بتقبيلها مرة أخرى ، ولكنها أسرعت فنهضت قبل أن يلف ذراعه على خصرها ، وقالت : « أرجو . . أرجو أن تذهب . . لقد كاد الليل أن ينتصف »

فقال : « إنى آسف ياسميرة ، كان ينبغى أن أخرج قبل ذلك»

قالت : « لا تقل هذا ، ولكن يحسن أن تعود إلى . . إلى البيت ، فقد أصبحت أخشى ان تظن أمك الظنون بنا لطول ماانقضى من الليل معاً . »

فأقبل عليها بلهفة يقول : « وماذا يعنينا ظنها خيراً أو شراً؟ ألسنا سنتزوج ؟ »

قالت : « أرجو أن تذهب الآن » .

ولثمت بنانها له وهى تودعه عند الباب ، وأحس أن على صدره حجراً وهو يخرج . وخيل إليه أنها لم تكن مصغية حين قال . « ألسنا سنتزوج ؟ » ، وجعل يردد وهو يمشى « أترانا سنتزوج ؟ » ثم صارت عبارة السؤال « هل نتزوج ؟ » وصار خطوه على مقاطعها ، كأنها لحن موسيقى .

وزارها فى الضحى فلم يجدها فترك لها رسالة .

وفى المساء كانت أمها جالسة إلى المائدة وحدها تتعشى فأشارت إليه أن اقعد ..

فأراح كفيه على المائدة وسألها : « أين سميرة ؟ . . »

فتمهلت شيئا قبل أن تجيب : « سافرت » .

وكانت هادئة ساكنة ، لا يبدو على وجهها شىء ، كأنه درهم مسيح .

« سافرت ؟ ! إلى أين ؟ ومتى ؟ ! ولماذا ؟ . . »

فاعتمدت على المائدة بكوعيها ، وقالت : « ألا تجلس ؟ ما هذه الوقفة المزعجة ؟ ! . »

قال : « أريد أن أعلم وأطمئن » .

قالت : « تطمئن ؟ هه . . أى رجل أنت ؟ » ، وحركت رأسها يمنة ويسرة .

فانحط على الكرسى . وهم بكلام ، ولكنها سبقته إليه ، فقالت :

« هذا أحسن . أستطيع على الأقل أن أريح عنق . »

فسألها : « ألا تريحنى أنا أيضاً ؟ . »

قالت : « أما متى سافرت ففى بكرة الصباح — عرفت هذا من الخدم . وأما إلى أين ، فلا أدرى ، وأما لماذا فعلمه عند الله . . فهل استرحت ؟ »

قال : « كيف أستريح وأنا لا أعلم أين هى ولا . . . »

قالت : « إيه . . . افعل ما بدا لك . . . الدنيا واسعة . . . اذهب فابحث عنها فيها . »

فصاح بها : « كيف تقولين هذا . . . . . »

فقاطعته قائلة : « ياحبيبى ماذا تريد أن أصنع . . . إنه لاسلطان لى عليها ، وإن كنت أمها . وقد كنت أنت القادر على أن تمسكها ، ولكنك تركتها تطير ، بل حضضتها على الطيران . . . هل تستطيع أن تقول لى لماذا يعارض أهلك فى الزواج منها ؟ ولماذا ينفرون منها هذا النفور ؟ ودع أهلك وقل لى أنت لماذا كنت تأبى كل هذا الإباء السخيف أن تدعها تنفق مليما وهى معك ؟ أمن أجل أنك لست كفؤاً لها فى ثروة يجب أن تنزل هى عن كل ما ألفت ، وأن تروض نفسها

على حياة الضنوكة إرضاء لك ؟ أليست هذه أنانية صارخة حمقاء ؟ كيف يمكن أن تعيشا معاً راضيين ناعمين ، إذا كنت تستكبر هذا الاستكبار المر المتعب ؟ أى حياة تكون حياتها معك ؟ ما خير مالها إذن ؟ ماذا تفيد منه ؟ وتجىء وتسألنى أين هى ؟ . ولماذا سافرت ؟ ضجرت يا سيدى . . طقت . . انفلقت . . أيقنت أن حياتها معك ستكون جحيما لهـا ولك ، ولأمك ، ولأبيك . هل استرحت الآن ؟ هل فهمت ؟ . لشد ماخيبت أملى فيك ، أنا التى لم أزل أحتال حتى حسبتنى ظفرت بك لها . لاحول ولا قوة إلا بالله . . . »

فأطرق برهة ثم رفع رأسه وسألها : « وبماذا تشيرين علىّ ؟ أرجو ان تظلى حليفة لى . . »

فقهقهت ثم قالت : « يسألنى هذا المصنوع من الجبن الطرى بماذا أشير ؟ تزوجنى أنا . . عسى أن أذكرك بها . . » وقهقهت مرة أخرى : « اسمع ياحبيبى . إما ان تأكل معى وأنت ساكت ، وإلا فاذهب أنت أيضاً عنى . »

ولم يكن يطيق السكوت ، ولا كان لسانه يقوى على الدوران ، فنهض ومضى إلى الباب فى صمت ، فلما صارت يده عليه سمعها تقول :

« إذا أسرعت فقد تدركها ، ولست أظنك فاعلا . . »

فدار وصاح بها : « إيه ؟ » ، وقد عاد الأمل ينبض .

فقالت ، وهى تهز رأسها : « كلا . لا أظنك مدركها . . عوضى على الله . »

فارتد إليها وأقبل عليها يتوسل أن تفصح ، ويلثم رأسها وكفيها بطناً وظهرا .

فتنهدت واضطجعت وقالت : « إذا كان لا بد أن تعلم ، فاستعد لصدمة . . كنت أشفق عليك منها لأنك خرع . . . مصنوع من الجبن الحالوم ... هذا رأيى فيك كما تعلم ولكنك ولد طيب . . شريف .. عفيف .. ولقد كنت أطمع أن تكون لى إبناً . . . نخيبت أملى . . . الأمر لله . . . كل حياتى سلسلة آمال خابت . . . حتى أصبحت لا أبالى شيئاً . . . استوى الخير والشر عندى . . . والسعـــادة والشقاء . . . أظنك تقول إنها عجوز ثرثارة . . الحق معك فإنك لا تدرى . . ترانى فى نعمة وتسمعنى أقول . . . أوه ما الفائدة ؟ وهل مثلك يمكن ان يفهم شيئاً ؟ »

وأمسكت . فتحامل محمود على نفسه ، وألح عليها أن تنتجيه فتبسمت ، وهزت رأسها ، وأراحت يمناها على كتفه وقالت :

« الشباب قليل الصبر ... إنه لا عمل لى فيما بقى لى من عمر إلا الحديث . . وفى الوقت متسع ؛ فلنتكلم عن سميرة . . فاعلم

أنها سافرت إلى الضيعة . وقد استقر عزمها على الزواج من ناظر الزراعة . »

فوثب قائماً ، وجعل يهزها ويصرخ : « إيه ؟ ماذا تقولين؟»

فانتهرته وصاحت به : « أمجنون أنت ؟ ألا يمكن أن تقعد كخلق الله ؟ نعم ناظر الزراعة . وماله ؟ إنه على الأقل رجل موثوق بعقلة وحزمه ، دخال فى الأمور . »

قال ، وأمسك رأسه بيديه : « ولكن ناظر الزراعة ؟.. كيف تقدم على هذا وهى لاتحبه ؟ »

قالت : « تحبه أولا تحبه .. ما قيمة هذا ؟ أنا تزوجت أباها ولم أكن رأيته ولا رأيت خياله . . . ومع ذلك عشت معه سعيدة . . إيه . »

قال : « لست أصدق .. مستحيل . . »

قالت : « تصدق أو لا تصدق ، هذا شأنك . . »

فسأل : « يجب أن نمنعها . . ليس المهم أن تتزوجنى . . بل المهم أن لا تتزوج هذا . . هذا البغل . »

فابتسمت وسألته : « وكيف بالله تنوى أن تمنعها ؟ »

قال : « أسافر من الغد . وأحاول أن أرد لها عقلها »

قالت : « سافر . . » وهزت كتفيها .

قال : « كيف تركتها تسافر ولم تمنعيها ؟ . »

قالت : « آه . هذه هى المسألة . كيف لم أمنعها . . . فاعلم ياسيدى أنه لا سلطان لى عليها . فإن أمرها بيدها كله ، وما أنا إلا .. ولكن ما الفائدة ؟ سافر أو لا تسافر ، كما تشاء ، ولكن من فضلك لا تقلب لى دماغى ، حسبى ما أعانى . »

فخرج على وجهه .

واستقل القطار فى الصباح إلى الضيعة ، ولكنه لم يكن يعلم أن القطار الذى التقى به فى الطريق كان يعود بسميرة ، وناظر الزراعة ، ليقضيا فى القاهرة « شهر عسل » طويلا . . يعدل عمراً مديداً إذا قيس بما يجد القلب وما تؤديه الأعصاب ثمناً للعسل .

وكانت تلك أول خيبة أمل له ، وأول زلزلة لنفسه التى لم تكن تعرف غير الاستبشار والثقة والاطمئنان .

وهيهات أن يقتنع الشباب الغرير بأن لو اطلع أحدكم على الغيب لاختار الواقع ، وأن « ثمار الطيش » وصفة نافعة لمن يركب الحياة بجموح الشباب .

— ٥ —

عاد الأستاذ حليم فقبع فى بيته ، ولاذ بكتبه ، وعاد بخيالاته وأحلامه ، ما أطرد منها وما شذ . ولكن الأمر لم

يستقم له ، والحياة لم تطب كما كانت تطيب من قبـل . فصار كالفرس الذى يمشى فى أرض ذات حجارة فهو يجرى كأنه يتّـق ، ويتردد كأنه منفلت ، ويضجر فيمد رأسه كأنه يريد أن يغالب اللجام ، ولا يزال يجتهد ولا يستقر ، ولا يمر مراً سهلا ، غير مضطرب . ذلك أنه خالف مألوفه ودخل فى غيره ، مستخفياً محاذراً حتى اطمـأن واستطاب ما هو فيه وفضله على ما ترك ، فانقبض ، وارتد متوارياً . وضرب القدر الـكأس التى رفعها إلى شفتيه وراح يمص منها ، فأطارها وتركه صديان يجمع ريقه تحت لسانه ، ويتلهف على رشفة أخرى يبل بها لثاته ، ويصر صماخه من الظمأ إلى عذوبة ما حسا منه ، ولا يصبر عما ذاق واستحلى بعد أن عرف أنه كان محلاً عنه . وذاك حال كل من يأكل من شجرة المعرفة وما زال صحيحاً أن الحياة إنما تصفو لغافل أو جاهل أو قادر على مغالطة نفسه .

ولم يتغير حاله مع عياد . فكان يجالسه ويسامره ، ويؤاكله ويشاربه كما كانا يفعلان . فقد اتقى الأستاذ حليم أن ينقطع عنه أو يتخلف عن لقائه ولم يكن يدرى ماذا يخاف على وجه الدقة . وإنمـا كان يشعر أن عليه أن يلازمه على قدر ما يستطيع لعله يحول بذلك دون كشف المستور .

وحرص أيضاً على لقاء محاسن ، فقد صار بينهما سر

يتنجيان به ويتساران، ولا يزالان يتساقيان تذكر نجمته، ونعمة الله عليهما إذ سترهما ولم يفضحهما. وكان يشعر أنه يعطف عليها ويرثى لها، وأنه يخافها، ويبغضها أيضاً. فلم يسعه إلا أن يظل على اتصال بها ليجنبها الطيش ويقيها مغبة الخفة، ويدفع عنها عوامل اليأس، ويمنع أن يقع هو فى بلية جديدة.

ولم تكن محاسن خيراً منه حالا أو أقل حيرة واضطراباً، وكانت قبل الذى وقع لها، تجترئ على أبيها ولا يجترئ عليها. فأصبحت تغض الطرف حين تراه، وتتلعثم إذ تخاطبه، فرضى هو عن هذا الأدب الجديد ولم يكلف نفسه عناء التفكير فيما فاء بها إليه.

ولم تكن تحب محموداً، ولكنها كانت لا تنفر منه، وارتضت ما ارتضاه لها أبوها، ووطنت نفسها على حياة زوجية معه، كانت هى تزعم أنها ستكون مملة لا محالة، وكان الأستاذ حليم يزينها لها ولا ينفك يقول لها فيما يقول إن المرأة قد تحب الرجل قبل أن تصبح زوجة له، ولكن هذا حب لا يكون إلا مشكوكا فيه لأن مرجعه إلى الخيال. وإنما العبرة بما تلقى نفسها تحن له بعد الزواج، وتجربة حياته وتلقى أثره. وما أكثر النساء اللواتى فترحبهن، بعد أن بنى بهن بعولتهن، بل انقلب كراهية صريحة لأنهن لم يجدن ما كن يتطلعن إليه

ويطمعن فيه ويتخيلنه ، فخاب أملهن ، وثقلت وطأة الاحتمال على أعصابهن التى لا تفتأ تتنبه ولا تسكن . ويارب امرأة لم تكن تعرف الرجل ولا رأته . أو كانت تعرفه وتراه ولكنها لاتصغو إليه بود ، فلما عرفته زوجا لها أرضاها منه مايرضى ، فأحبته ، وصار منية النفس كلها وهوى القلب جميعاً . ذلك أن الزواج هو الامتحان الصحيح — والمرأة فى هذا على خلاف الرجل ، فالرجل الذى لايشبع من المرأة يقبل ولا يعرض ، أما المرأة فإنها إذا ألح عليها هذا السغب تتلف أعصابها وتصب غضبها على من كان علة حرمانها الشبع .

كذلك كان يقول لها الأستاذ حليم ، فتصدقه . أليس أسن منها وأخبر ؟ أليس مشهوراً بالعلم والتبحر فى المعرفة ؟

فلما كان ما كان ، صار يحدث لها رعباً أن تتصور أن تكون يوماً ما - زوجة محمود . وساورها الشعور بأنها خانته ، وإن بقى عقلها مدركا أن هذا شطط فى التهمة واسراف على نفسها فى الظلم . وخيل إليها أنها لم تعد أهلا له أو جديرة به ، وإن كانت لا ترى له مزية تفرده بين أنداده . وكانت كلما ألحت على نفسها بالاتهام والتحقير ، تثور وتتمرد وتتسائل عن محمود هذا ما الذى يجعلها تتوهم أنه خير منها وأقوم سيرة وأنظف ذيلا وأعف عيناً وقلباً و . . ؟ ماذا تعرف عنه سوى

ما أطروه به وقالوا فيه من الخير ؟ ومتى قال أحد فى طالب زواج إلا كل حسن وجميل ؟

وكان يثقل عليها جدا اضطرارها إلى كتمان سرها ، فتحس بالحاجة إلى البث ، وتود لو استطاعت أن تبيح أمها صدرها ، وتطلعها على خبيئة نفسها . وكثيراً ما همت بذلك متشجعة بأن قلب الأم أحنى قلب ، فيتحرك لسانها ، ثم تجبن وتفـــزع وتعضّ عليه .

وقد علمت من الطبيب أن الأثر الذى بقى مما يسهل علاجه ووعدها خيرا حين تشاء ، أو حين تدعو الحاجة إلى الإصلاح ، ولكنها مع ذلك بقيت مرة النفس ، مشمئزة من هذا التلفيق الميسور والترقيع السهل لما كانت تعتز به وتحرص عليه من آية العفة . وزادها هذا نفورا من محمود ، لا كراهة له ، فقد كان من أغرب النقائض أن شدة تفاعل ما يدور فى نفسها ويضطرب به صدرها أفضى بها إلى رقة له فى قلبها . وإنما كان نفورها عن استنكاف منها لمخادعته والكذب عليه وستر الحقيقة عنه ، ولما كانت لا تأنس من نفسها شجاعة كافية تعينها على مصارحته ؛ وإن كانت تأنف من الكتمان ، فقد ألفت نفسها تشمس ولا تقدر على كف نفورها منه وجفوتها له .
ورأى هو من تغـــير حالها وعسرها فى عنادها ، ووضوح

ضجرها منه وزهدها فيه ما نشر المطوى مما أورثته سميرة من سوء ظنه بالمرأة ، وسرعة تقلبها ، وقلة ثباتها على خلق أو عهد . وسئم أن يكون هذا حظه كل مرة ، وأيقن أن فى الأمر رجلا آخر ، إذا لم يكن « ناظر زراعة » فأكبر الظن أنه هذا الأستاذ حليم الملعون . . وثار على خسة نصيبه من وفاء المرأة ، فقطع زيارته لبيت عياد .

ولم يكن بال عياد إلى هذا . فقد كان فى شاغل من صاحبته الأجنبية . فإذا لم يكن معها ، فهو فى طعام وشراب ، وصياح وزعيق . وما جعل الله لامرىء إلا قلباً واحداً فى بدنه ، وقد استأثرت بقلبه وعقله صاحبته ، واستبدت بلبه ، وما بقى من ذلك — وهو أقل من القليل — استنفده الشعور بأنه ظالم لأهله ، والاجتهاد فى خنقه وتلطيف لذعه بالغطرسة ، والعجرفة وسوء الخلق .

الفصل الثالث

— ١ —

وجدت محاسن أنها لم تعد تطيق الصبر على ما هى فيه، وأنه لم يبق لها ما تتعزى به، أو تتطلع إليه، وتتشدّد بالأمل فيه. فأبوها لا يفتأ يغيب عن بيته ليلة وليلتين كل بضعة أيام، ويبيت فى حيث لا تعلم، مع صاحبته، ويزعم أنه إنما كان فى « مهمة » وتبلغ هذه المهمات معظم ماله، فلا يدع لبيته إلا القليل الذى ليس به اكتفاء. وإذا عاد من « مهمة » برم بالبيت ومن فيه، وأظهر الشكاسة والشراسة، وأبى إلا أن يكون بركانا «منزليا» فى صورة آدمية. واتسعت الهوة على الأيام بين عياد وأهل بيته، وكانت محاسن تجاهد ما وسعها أن تلقى من ناحيتها على هذه الهوة جسراً، غير أنها أخفقت لأن أباها لم يتكلف من ناحيته شيئا من التمهيد أو المعاونة، ولج فى نهجه الأعوج فكان يفسد كل ما هيأت، ويهدم كل ما بنت.

وكانت أمها ضعيفة وهنانة، لا خير فيها ولا اعتماد عليها. غير أنها كانت صابرة لا تشكو ولا تتذمر. وكانت محاسن

كثيراً ما تقول لها إن طراوتها هذه هى التى أطمعت فيها زوجها وشجعته على ركوب رأسه ، وإهمال حق بيته عليه . فكانت الأم تؤمن على كلامها وتتأوه ، وتتنهد ثم تسأل : « وماذا يسعنى ؟ ما حيلتى ؟ الصبر طيب . » ولم يكن صبرها عن حكمة وبعد نظر ، بل عن ضعف ورخاوة وبلادة .

واستشارت محاسن الأستاذ حليم ، فما كانت تعرف أحداً غيره تستطيع أن تفضى إليه بهذه الأمور ؛ فعجز عن أن يشير عليها بما فيه خير أو يدلها على ما هو خليق أن يكشف الغمة ويفرج الكرب .

فسألته : « وما رأيك ؟ ألا أستطيع أن أزاول عملا أكسب به رزقاً ؟ إنه لا بد لنا من مال أفيده ، وأعوض به النقص . فإن أبى يزداد كل يوماً ضناً وتقتيراً ، لأنه يزداد كل يوم تورطاً مع صاحبته . . »

قال : « وأى عمل تستطيعين أن تؤديه ؟ »

قالت : « أستطيع أن أتلق دروساً فى الكتابة بالآلة الكاتبة . ثم أعمل فى مكتب محام أو فى شركة . . فما قولك ؟ »

قال : « والله إنه لرأى . ويبدو لى أن هذه هى الوسيلة الوحيدة ، ولكنى أخشى عليك . . »

فتعجبت وسألته : « مم ؟ »

قال : « أخشى أن يوقعك سوء الحظ . . . إ . . إ . . تعرفين ما أعني . فقد يتفق أن يكون الذى تعملين عنده ، أو له ، خنزيراً فيستغل حاجتك إلى عملك . وأنت مع الأسف ثرثارة طيبة القلب ، إذا آنست رقة وعطفاً من إنسان أقبلت عليه وأفرغت له كل ما فى قلبك . . . . »

وكان هذا صحيحاً ، كما عرف الأستاذ بتجربته الشخصية فما كادت تجلس إليه ساعة ، وتطمئن إلى عقله وعلمه حتى أطلعته على ماينبغى أن يستتر من دخائل البيوت وأسرارها .

فابتسمت محاسن وقالت بلهجة واشية بمرارة النفس : « إذا كان هذا كل ماتخاف ، فاطمئن ، فقد علمتنى ما فيه الكفاية »

فأطرق وقال كأنما يحدث نفسه : « هذه وخزة أليمة . وأعترف أنى أستحقها . ولكن ما كان جاء عفواً وعلى غير قصد . والحمد لله الذى وقاك — وقانا — سوء العاقبة . وإنه ليخيل إلىّ أن كل شىء فى هذه الدنيا قضاء وقدر . من كان يظن أن الذى لا يحدث إلا فى الفلتات النادرة ، وفى مرة من كل خمسين ألف مرة ، يحدث لنا من أول مرة ؟ وعلى الرغم من هذا التحرز والاحتياط ؟ سوء حظ ليس إلا . . . أو قدر جرى به القضاء . كنت ذات يوم واقفاً فى شرفة بيتى ، فرفعت عينى إلى البناء المواجه لنا ، وهو عمارة ضخمة عالية فرأيت غلاماً

منحنياً على حافة الشرفة ، وكانت فى الطبقة الرابعة ، فذعرت ، فقد كان نصف الغلام متدلياً ؛ وهممت بأن أصيح به ولكن الصوت وقف فى حلقى فلم يخرج من فمى شىء . ورأيت أمه مقبلة تعدو ؛ ولكنه انقلب وهوى قبل أن تدركه ! ! تصورى هذا . . . غلام يسقط من الطبقة الرابعة على الرصيف المبنى من الحجر ، أو من الأسفلت ، سيان . . وبصرت برجل يمشى على الرصيف وقد قارب أن يكون فى طريق الغلام إلى الأرض ، فأيقنت أن الغلام سيتفتت عظمه ، وأن الرجل سيصيبه أيضاً سوء . وتصورى غلاما يقع من هذا الارتفاع على أم رأس رجل . . ألا يمكن أن يدق عنقه ؟ »

وضحك الأستاذ ، فجذبته محاسن من كتفه ، وسألته بلهفة: « وماذا جرى ؟ »

قال وهو لا يزال يرتج من الضحك : « جرى ؟ جرى ؟ لاشىء . نجا الغلام ، ونجا الرجل . وهل تصدقين هذا ؟ »

قالت : « الحمد لله . . ولكن كيف ؟ كيف ؟ »

قال : « اسمعى يا ستى : لو كان الغلام وقع من الشرفة إلى الأرض مباشرة لكان قد قتل ، ما فى هذا شك . ولكن القدر شاء أن تحدث المعجزة ، فساق هذا الرجل الغافل الذى كان يمشى على الرصيف ولا يدرى أن غلاماً يهوى ؛ ولم يسقط الغلام

على رأس الرجل ، وإنما سقط أمامه ، على مسافة شبر أو شبرين منه ، فاضطرب الرجل ورد رأسه إلى الوراء ، ودفع يديه إلى الأمام ، وهو لا يدرى ماذا يتقى بهما . دفع يديه فدفعتا الغلام ، فانقطع خط السقوط وزالت قوته ، لأن الغلام تحول عن طريق الهبوط — كان يهوى من أعلى إلى أسفل فانتهى هويه باندفاعه فى خط أفقى . فلما سقط بعد ذلك على الأرض كان سقوطه من ارتفاع متر أو حوالى ذلك ليس إلا ، فلم يضره ذلك . أى نعم . كل شىء فى هذه الدنيا ، قسم وحظوظ وأرزاق . هل تعرفين كيف عرفت أباك ؟ (وضحك مرة أخرى) قصة لطيفة : كنت سائراً فى الطريق وعينى على الأرض ، وإذا بكفه تلطمنى وتكاد تلقينى على الأرض ، وكان أبوك هو الذى لطمنى ، ولم يكن يتعمد ذلك ، ولكنه — كما تبينت — كان يتحدث ويلوح بيديه ، فأصابتنى كفه ، وأسرف فى الاعتذار كما كان يسرف فى التلويح بذراعيه ، وأبى إلا أن يسقينى شاياً فى مقهى . وهكذا عرفته ، وصرت صديقاً له ، وهكذا عرفتك أنت . . . فهل آمنت أن كل شىء فى دنيانا قدر وقسمة ؟ »

فربتت له على كتفه وقالت : « ثق أنى لا ألومك على شىء . ولكنه لا يسعنى إلا أن أشعر بألم ومرارة لأنى كنت ضحية هذا القدر ؛ فاعذرنى إذا فاضت المرارة على لسانى »

قال : « إنى عاذر وشاكر : ولا تحسبى أنك أنت وحدك الضحية وإن كان أمرك أبين وأوضح ، فإنى أنا أيضا أصبحت إنسانا آخر . . ولكن دعى هذا ، ولنعد إلى العمل الذى تنشدين . . »

وأمدها بقدر يسير من المال تستعين به على التدرب على الآلة الكاتبة فى أحد المكاتب أو المعاهد المعدة لذلك ، فلما أتقنت الكتابة بها بسرعة كافية ، قدمها إلى مدير شركة تجارية كبيرة ، وأوصاه بها خيراً . ورشحها حسن وجهها قبل أن ترشحها الكفاية : فأفرد لها حجرة قريبه ، فيها سجادة نفيسة ، وكراسى مكسوة بالجلد الثمين ، ومكتب ضخم عليه لوح من البلور ، ومروحة كهربائية للصيف ، ومدفأة للشتاء ، وعنقود من مصابيح الكهرباء يتدلى من السقف، وقال لها إن مرتبها فى البداية سيكون ستة جنيهات ، وإنه يزيد مع الاجتهاد . وغمز بعينه وهو يضيف إلى ذلك أن حظها بين يديها .

وفى اليوم التالى دعاها إليه ، فوقفت بين يديه ، فأومأ إليها أن تقعد ، وشرح لها واجباتها ، وهى هينة ، لا تتجاوز كتابة بضع صفحات أو رسائل على الآلة الكاتبة ، وإثبات تواريخها وأرقامها فى دفتر ، والاحتفاظ بصور منها فى الملفات الخاصة بموضوعاتها المختلفة ، وسألها عن أبيها وعمله ، ومسكنها ،

والطريق الذى تسلكه . وكان يهش لها ويتلطف فى الحديث معها ، ويكرر لها أن لا حد لتجزية المجتهد على اجتهاده ؛ وقال لها وهو يصرفها بلطف إن فى وسعها إذا شاءت أن تستلف من مرتبها ، واقترح عليها أن تقترض نصف مرتب شهر ، على أن ترده أقساطا ، فشكرت له عطفه .

ولكن الأستاذ حليم نصح لها بأن لا تفعل . وقال إنه خير لها أن تأخذ مرتبها كاملا فى أول كل شهر ، ليتسنى لها حسن التدبير ، وإقامة الأمور على حدود مضبوطة ، والتصرف بغير اضطراب . وحذرها من المدير فما يعرفه معرفته . ولا هو مطلع على دخائله ، وقد يكون المراد من اقتراحه التعسير لا التيسير ، لتضطرب أمورها فلا تنقطع حاجتها إليه للإستئذان فى الاستسلاف ، فيبدو كأنه يغمرها بفضله ، وهو ما عدا أن شجعها على التطلب ، حتى لا يبقى لها آخر الشهر سوى شُوَيَّة يسيرة لا تبلغ أن تكون كافية ، وهكذا تظل فى عسرة دورية وحاجة إليه لا تنتهى . ومن يدرى حينئذ ماذا يحاول ؟ وبماذا يهم ؟ وختم محاضرته بقوله : « إنى أراه نخا فحاذريه . »

فتحرزت ، وصبرت على قلة الخير ، واستحقت فى آخر الشهر مرتب عشرة أيام ، فلم يحمل إليها أحد شيئا ، ومضت أيام وهى لا تسأل ولا تُعطَى ، فعادت إلى الأستاذ حليم

فقال لها : « لعلهم آثروا أن يضموا الأيام العشرة إلى الشهر الحالى ، أو عسى أن يكونوا قد أسقطوها من حسابهم وعدوها أيام تجربة ، ومرانة على العمل . على كل حال يحسن أن تنتظرى وتتأنى ، وافرضى أنك لم تلتحق بهذه الشركة إلا اليوم ، وأجرك على الله . وحذار أن تظهرى اللهفة ، أو أن تقولى أو تفعلى ما يدلهم على أنك لست بخير ، فما أرانى أطمئن إلى هذا المدير ، وأن صدرى لتحك فيه أشياء منه ، لا أدرى لماذا ؟ فما انبأتنى بشىء يوجب هذا .. ولكنه شعور غامض لا أعرف له باعثا وأرجو أن يكون كاذبا . »

وكان المدير مقتصداً فى ملاطفتها ، غير مسرف فى حفاوته بها ، فزال ما كان يهجس فى خاطرها من كلام الأستاذ حليم وسوء ظنه ، أو فتر على الأصح ؛ وكان ربما دخل عليها غرفتها فتنهض فيشير إليها أن تقعد ، ويقول : « لا داعى لهذا . ثم إنى لن أطيل الوقوف ، ويحدثها فيما جاء له . فإذا امتد نفس الكلام قعد على ذراع كرسى واعتمد على مكتبها ، ويسألها أحياناً وهو يهم بالانصراف عن عملها ، أهو ثقيل ؟ وهل هى راضية عنه ؟ فتشكره فيهز رأسه ويخرج .

— ٢ —

ومضت الأيام ، ولم يحدث شيء . وأقبل الشتاء فكثر العمل وقلت فترات الراحة . ولكنه كان على الجملة أطيب وأخف على النفس من العمل فى الصيف ، وكانت تعود إلى مكتبها فى الشركة بعد الظهر ، فى الساعة الرابعة وتمكث إلى السادسة . وكثيراً ما كان المدير يصرفها قبل ذلك رفقاً بها ، إذا لم يكن ثم ما يستلزم بقاءها .

وانتظمت حياتها ، واطردت على وتيرة واحدة . فكانت تخرج من بيتها كل صباح — ستة أيام فى الأسبوع — فى منتصف الساعة الثامنة فتبلغ الشركة حوالى التاسعة ، فتدخل غرفتها الدافئة ، وتنضو معطفها ، وتنظر فى مرآتها الصغيرة وتسوى شعرها ، وتصلح ثيابها ، ويمر بها الموظفون الآخرون فيحيونها وهم فى مدخل الباب ، أو يدخل منهم واحد يثرثر معها لحظة ؛ ويقدم المدير حوالى الحادية عشرة ، فيدعوها إليه ، ويناولها بعض الرسائل ، فتشتغل بها إلى الظهر . ثم تتهيأ للخروج فى منتصف الساعة الأولى ، وفى المساء يكون عملها أكثر ، إلا أنه لا يكلفها شططا .

— ٣ —

وكان معها فى الشركة شاب ظريف أنيق الملبس رطب اللسان يسمونه « نسيم بك » لسخاء يده ومروءة قلبه ، لا مجاملة وتلطفاً . وهو شاب أبى له والده الـــثرى إلا التجارة دون الزراعة التى كان مبتغاه أن يشتغل بها فى ضيعته الواسعة ، وكان صديقاً للمدير « راتب بك » فألحقه بشركته ليتدرب ، ووضعه عند أولى درجات السلم ليرقى فيه ويتعلم . فلم يتمعض نسيم بك ولم يتسخط ، بل أقبل على ماوكل إليه من الأعمال — تسجيل الرسائل الصادرة والواردة وتوجيهها — بنشاط وخفة ومرح . وكان يقول لزميله فى الغرفة « اقتـد بى ياصاحبى ، فإنك خليق إذا ثابرت مثابرتى ، وأخلصت كإخلاصى ان ترتقى ، حتى تتولى إدارة هذه الشركة العظيمة . أى نعم . فإنك أولى من صاحبنا راتب بحجرته الوثيرة ومكتبه الطويل ومقعده الدوار . ولست أحب أن أذكر إنسانا إلا بخير ، ولكن الحقيقة أنى لا أرضى عن صاحبنا راتب كل الرضى ، انظر مثلاً إلى الصدرية التى كان يرتديها أمس ! أو لا تنظر ! فإنها تؤذى العين . هل يليق أن يلبس إنسان صدرية كهذه يخيل إليه أنها من ألوان غروب الشمس لولا أننا نعلم أنها من صوف ؟ وتأمل ربطة الرقبة ! .

والحذاء.! أوه.. لا لا لا، وإنى لأحاوره وأداوره وأعالج ان أصلح ذوقه، ويبدو لى أحياناً أنى سأنجح، ولكنه يبدو لى فى أحيان كثيرة أخرى أنه يفلت منى ويرتد وينأى — على أنى لست يائساً من قدرتى على تهذيبه وتثقيفه.. الصبر طيب ياصاحبى، كما كانت جدتى تقول... تالله ما كان أحكمها عليها رحمة الله! ولكنى أضيع وقتك وأشغلك عن عملك، وهذا لا يجوز، كلا! لا يجوز. فإننا هنا — أنا وأنت — لنجعل من هذا المكتب الذى نحن فيه نموذجا. أما كيف فمسألة اخرى، ننظر فيها حين يجىء أوانها، وسيجىء هذا الأوان ولا شك، وسيجىء يوم تسيّر فيه مصلحة السكة الحديدية قطراً مخصوصاً بأجور مخفضة للمتلهفين على رؤية هذا المكتب النموذجى وزيارته، على نحو ما تسير قطار الآثار فى الشتاء، وقطار البحر فى الصيف. والآن يجب أن أكف عن الكلام، وإن كان لايسعنى إلا الاعتراف بأن حديثك ممتع. فقد آن أن تعمل، فإن منافسينا فى التجارة لا يغمض لهم جفن، وهم ساهرون متربصون، ليغتنموا فرصة إهمالنا، وقد شاع وذاع وملأ الأسماع أن نسيم وعزت صديقه الحميم يقولان ولا يعملان. فأخوف ما أخاف أن تثب الشركات الأخرى وتخطف من أيدينا تجارتنا... هيا بنا إذن إلى العمل!!»

ولم يكن المدير يدرى ماذا خبأ له القدر حين قبل أن يلحق نسيما بالشركة مرضاة لوالده، فقد راح يطارده، ويقفو أثره فى كل مكان. وعرف أنه عضو فى ناد فدخل فيه أيضا، والتقى به ذات ليلة فى النادى فأنغض إليه رأسه بالتحية ومضى إلى المكتبة، فدعا المدير أحد الخدم وأسر إليه شيئا.

ودخل الخادم على نسيم بك فى المكتبة وقال له:

« معذرة يا سيدى هل حضرتك عضو؟ »

قال: « أنا نسيم »

فعاد يسأل: « يعنى إنك عضو؟ »

قال: « برافو.. ما أذكاك.. ولست أشك أنك سررت سرور الجميع حين طير النادى الخبر إلى أرجاء المعمورة وأعلن إلى الأملاء قاطبة أنى أصبحت عضوا. أم تراك كنت فى شاغل من عملك حينئذ؟ إذا كان هذا هكذا فإنى أقدم لك احترامى. فإنى أنا أيضاً أعمل، نعم أنا عضو، فهل لك أن تبلغ سعادة راتب بك أسفى، وأنى عضو، وأنى أديت ما يجب أداؤه من رسم الدخول والاشتراك؟ »

وفى ليلة أخرى دخل على راتب بك فى النادى وهو جالس وبين يديه صحيفة، فهوى إلى كرسى إلى جانبه بقوة، فالتفت راتب بك، فقال نسيم: « آه.. هذا نحن. إنها دنيا صغيرة

فنحن لا نزال نلتقى فيها » فلم يجب المدير بشىء ، فنادى نسيم خادما وقال له : « أرجو أن تتفضل علىّ بفنجان من القهوة ، وأنت يا راتب بك ؟ »

قال راتب بك : « لا شىء »

قال : « ولا شىء لراتب بك »

وانصرف الخادم وعكف راتب بك على الصحيفة ، فتركه لحظة ثم قال : « لقد تلقيت اليوم رسالة من والدى »

فارتمت الصحيفة على حجر راتب بك ، وقال وهو ينظر إلى نسيم شزراً : « وما لى أنا ؟ »

فتكلف نسيم الدهشة والألم وقال : « إيه يا دنيا ؟ من كان يظن أن رجلا كوالدى ينطوى لك على الإكبار والحب ، ورجلا له مثل مواهبك العظيمة ، تقع بينهما النبوة وتحل الجفوة ؟ على أنى مستعد لإصلاح ما لعله فسد إذا سمحت لى . . »

قال هذا لظهره ، فقد ألقى الصحيفة ، ونهض وخرج .

ولم يزل نسيم يلج فى تعقب المدير حتى كف عن الذهاب إلى النادى .

وشكا نسيم إلى زميله عزت بثه وخيبة أمله فقال :

« إنى لا أدرى ماذا أقول فى صاحبنا راتب . ولعلى مخطىء ، ولكنى كنت أتوقع أن يرحب بابن صديقه ، ويتلقاه فى كل

مكان مفتوح الذراعين . ولكنني أرى وجودى فى النادى يثقل عليه ، وقد بذلت كل ما وسعنى لأكسب رضاه وأفوز بحسن رأيه ومودته ، ولكنه كان يقابل جهودى بالسخط والاستنكار ومغادرة المكان . . . لم تبق لى حيلة ياصاحبى إلا الصبر ، وهو كما علمتك ، طيب »

وكان نسيم هذا هو الذى حمى محاسن من الملل ، ورد وجه الحياة وضيئاً ، وأشاع فى نفسها الرضى والاستبشار ، فقد كان لا يفتأ يدخل عليها ويتحدث إليها فيضحكها ويسليها ، وقد يدعوها إلى العشاء فيقول لها مثلا :

« تواترت إلىّ الأشاعات بأن على مقربة من شركتنا العظيمة التى تعتمد علينا فى أعمالها الجليلة النافعة ، مطعماً يتكفل بأن يرفو للإنسان ما أتلف الكد فى العمل من أنسجة البدن ، بثمن زهيد .. وقد نظرت الساعة إلى وجهى فى المرآة ، فراعنى ما عراه من الذبول والتغير ، فقلت لنفسى إنك يا نسيم ضحية الإخلاص فى العمل ، وإنى لأخشى أن يقتلك اجتهادك . وحينئذ ماذا يكون ؟ كيف تقف هذه الشركة على قدميها بدونك ؟ فما قولك ؟ أليس هذا حقاً ؟ »

فتضحك محاسن ، وتسأله : « ثم ماذا ؟ »

فيقول : « وأنت أيضاً . صاحبنا راتب يرهقك ، بما يكلفك

فوق طاقتك وسأخاطبه فى هذا ، وأؤنبه عليه ، ولكنه لايجوز — ولا يفيد — أن أفعل هذا ومعدتى فارغة ، وجسمى هزيل، ولونى ممتقع ، وصوتى خافت من الضعف ، فتعالى نجرب هذا المطعم الذى يقول عنه رواده إنه هو المطعم الذى يحتاج إليه ، وكان يبحث عنه ، أساطين التجارة وأقطابها وعمدها وأسنادها مثلنا . . وسننظر فى أمر صاحبنا راتب فيما بعد . وإنه ليعز علىّ أن أدعه ينتظر ، وما أشك فى أنه سيقضى ليلته حائراً قلقاً مسهد الجفن : ولكنه لن يضيره أن يتعلم الصبر ، كما تعلمناه نحن العاملين المجدين . . فتعالى . . »

وكان خير مافيه أنه لايحاول أن يغازلها ، كأنها رجل مثله ، فكانت تحمد له سيرته معها ، وتخلد إليه بالثقة ولا يساورها قلق ، وإن كان لا يرضيها فى سريرتها أنه لا يبدو عليه أنه يشعر بأنها فتاة لها جمال وفتنة . على أنها كانت تتعزى بأنه ما كان ليقبل عليها ويطيب نفساً بصحبتها لولا أنه يرى أن لها حظاً من الجمال. وحدثت نفسها أنها تؤثر أن يظل كما هو ، لايقاربها بغزل .

— ٤ —

وكان نسيم متكئاً على مكتبه — ذات مساء — على عادته بعد أن يفرغ من عمله ، فقال له عزت : « اسمع يانسيم »

وكان الموظفون جميعاً يحرصون على تلقيبه بالبكوية ، فاستغرب إسقاطها الآن ، وأحس أن أمراً جللا أنساه ذلك . ولم يكن يعبأ بهـذا ، أو يبالى كيف يخاطبه الناس ، ولكن مخالفة العادة تلفت النظر .

فقال : « هات ما عندك ياصاحبي ، فقد أعرناك السمع ؛ قل ، وأفض ، فإنه يخيل إلىّ أن على صدرك أكثر من هذا القميص الذى استأذنك فى القول إن ألوانه شتى لا تعجبنى ، وإذا كان ما بك من الهم ثقيلا كألوان قميصك ، فإن لك أن تتق بعطفى . . . فألق بكل ذلك أمامى — بالهم وبالقميص جميعاً . . . »

قال عزت : « إن محاسن فى غمرة . . . »

« محاسن فى . . ماذا تعنى على وجه الدقة ؟ »

« أعنى أن صاحبنا يصب على رأسها وابلا من التأنيب والتوبيخ . . »

« هل تريد أن تقول إن زفيفاً من غضبه هب عليها ؟ »

فضحك عزت وقال : « إنه إعصار ! لقد دخلت عليه الساعة ، وأؤكد لك أنه كان يرمى بكل ما على مكتبه ، ويزمجر ، ويزأر ، وينفخ ، ولا يتيح لها فرصة للكلام . . »

فقال نسيم : « مسكين ، وإنى لأرثى له . . »

فتعجب عزت وقال : « ترثى؟ أولى أن ترثى لها ! . لقد نهرنى وطردنى ولا أكتمك أنى خرجت أعدو »

« وماذا كان يقول لها؟. »

« لم ألبث لأسمع . فقد رمانى بنظرة تشك كذبابة السيف . »

فقال نسيم : « إنى مع إعجابى بقوة حنجرته ، وبراعته فى بعثرة الأشياء ، وعلو لسانه فى التقريع ، لا يسعنى إلا أن آخذ علماً رسمياً بما أبلغتنى . فإن محاسن فتاة حساسة رقيقة الشعور ، ولست أقبل أن يتلف لها صاحبنا راتب أعصابها على هذا النحو ، وسأنظر فى الأمر ، وسأسأل محاسن ، ولن أتهور أو أطيش ، فإذا وجدت أن لصاحبنا راتب عذراً فى انفجار بركانه الآدمى ، فإنه سينجو من العقاب ، أما إذا تبينت أنه أساء إلى محاسن بلا موجب ، فإنى أكون مضطراً إلى إنصافها منه . »

وكانت محاسن ، لما دخل نسيم ، مذهولة . ولم يكن يخفى عليها أنها أخطأت خطأ فاحشاً ، فى كتابة ماوكل إليها ، وزادت تخليطها ، ووضعت بعضها مكان بعض ، وعنونتها إلى جهات غير جهاتها ، فدق الذين تلقوها التليفون للمدير مستغربين مستنكرين . ولكنها كانت قد قضت ليلة سوداء لم يغمض لها فيها جفن ، فقد انتاب أمها مغص كلوى شديد ، وقد

حركتها تتلوى ، فكان ما كان من الخطأ والتخليط . .

واطمأنت على أمها فى المساء ، فلما كان اليوم التالى ، وجاءت إلى المكتب وراجعت صور الرسائل ، فطنت إلى ما وقعت فيه من أخطاء شتى ، وهمت أن تطلع المدير على الحقيقة ، ولكنه سبقها فدعاها إليه ، وكان أكبر ظنها أن يلفت نظرها ويسألها عن علة هذا الخطأ ، حتى إذا عرف عذر ، والأمر على كل حال هين ، وليس من شأنه أن يضر الشركة أو يجر عليها خسارة . ولكن الذى لم تكن تتوقع هو أن تتلق كل هذا التوبيخ الأليم واللعن الوجيع ، وفوقه الطرد من الشركة ، على ذرى أمواج كالجبال المتقلعة من البذاءة .

وماذا تصنع الآن ؟ أى عمل آخر يمكن أن تظفر به ؟ ومتى كان مثل هذا الطرد من شركة كبيرة معيناً على الفوز بوظيفة أخرى فى غيرها ؟ وما العمل إذا لم توفق إلى وظيفة وقد بالغ أبوها فى التقتير فى النفقة لما علم أن لها مرتباً ؟

أدارت كل هذا فى نفسها وهى حائرة واجمة ، وطحنت بأضراسها نصف القلم الذى كان فى يدها ، وهى لا تدرى . وإذا بنسيم يدخل ويقول بلا تمهيد : « اتصل بى أن صاحبنا راتب كان يمتحن أمامك مقدرته الخطابية أو مبلغ ذلاقة لسانه وقوة بيانه ، فهل أقنعك بفصاحته وبلاغته ؟ »

فوثبت إلى قدميها ، وقد خطر لها أن نسيما هو الرجل الذى يسمحها أن تعوذ به فى محنتها .

وقالت بسرعة : « اسمع يانسيم ـ وأهملت هى أيضاً البيكوية ـ كل امرئ يهملها اليوم . . ـ إنى فى مأزق . وقد تستطيع أن تشير علىّ كيف أصنع ، فهل لك أن ترافقنى إلى مكان أشرب فيه فنجاناً من القهوة ؟ »

قال : « اقتراح سديد ، ولا شك أن الشركة ستفتقدنى وتبحث عنى فلا تجدنى ، ولكن صاحبنا عزت كفؤ لتصريف الأعمال فى فترة غيابى ، وأنا أثق به ، ففى وسع الشركة أن تطمئن فلنذهب إذن ، لتشربى قهوتك ، ثم تقصى علىّ القصة بالحرف الواحد ، يعنى من غير أن تنسى براعات صاحبنا راتب ، فإنه كما تعلمين بالتجربة ، وأعلم بالسماع ، من فحول البلغاء ، وقد اتصل بى اليوم من مصادر شتى لا يرتقى إليها الشك ، أنه كما يقول الفرنجة قد فاق نفسه . »

وقال بعد أن سمع القصة : « هذه الحدة المبالغة من أجل غلطة يسيرة تبدو لى غريبة . وقد درسنا — أنا وأنت — الطبيعة الإنسانية درساً عميقاً ، وغصنا فى بحرها اللجى طويلا فنحن لا نستطيع أن نسلم بأن خطأ ما ، من آنسة رقيقة مهذبة يمكن أن يهدم سدود الأدب كلها ويطلق كل هذا السيل الدافق

من السلاطة ، ولاشك أن صاحبنا راتب غليظ الطبع ؛ وقد أتعبنى ترقيقه ، ولولا ماتعرفين من طول أناتى وحلمى وحبى لخيره لقنطت ، ولكن آل نسيم براحهم بطئ ، ولكنا نتحدث عنك لا عن آل نسيم ، وإن كان الكلام فيهم يطيب ويحلو ، ويعز علىّ أن أحرمك لذة الاستماع إلى وصف ماوهبهم الله من السؤدد والنجابة وآتاهم من العزم والحزم ، ولكنه ما كل ما يتمنى المرء يدركه يا صديقتى . . فاصبرى وتجلدى . وحسبك عزاء عن هذا الحرمان أن فرعا من هذه الدوحة الكريمة الأصول ، يجلس معك ويؤنسك ويطرفك ، ويطيّب خاطرك . . كلا . . لا داعى للشكر . . والآن نعود إلى مولانا راتب . فهل تظنين أن الأصوب أن أدخل فى هذا الأمر أو أخرج ؟ »

قالت : « لست فاهمة . . . »

قال : « معذرة ! إنما أعنى أن من السهل أن أذهب إلى مولانا راتب وأقول له اسمع يا صاحبى ! لقد كنت عنيفاً ، واسمح لى أن أقول سليطاً طويل اللسان ، مع صديقتى محاسن ، من أجل غلطة تافهة ميسورة التدارك ، وأنا لا أسمح لإنسان أن يخاطبها بهذه اللهجة التى تفرق الشعر الجميل المسدل على أذنها الصغيرة وتجرحها ، فعجل باعتذار إليها ، والتمس الصفح منها ،

واجث على ركبتيك بين يديها ، فإن فعلت فإنى أعدك أن أعينك على تألفها من نفرتها ، وإلا فأنت الجانى على نفسك يا براقش هذا العصر . . وبعد أن أفرغ فى كلتى أذنيه هذه الخطبة البليغة . . »

فضحكت محاسن وقالت : « عفواً وشكراً ! ما يدرينى ويدريك ، لعله أصم . . »

فقاطعها وهو يلوح بيمناه : « إذن نهمل مولانا راتب ولا نعنى أنفسنا بتهذيبه وإصلاحه . . الحق معك ، فإنه ليس أهلا لكل هذا العناء ، ولقد ساورتنى الشكوك من زمان طويل ، ولكنى كنت أشفق عليه وأقول لنفسى : « مهلا يا نسيم . . إذا كنت ستنفض يدك منه فمن ذا غيرك يتولى إصلاحه ؟ على كل حال . . »

فقالت محاسن : « اسمع . إنى أرجو أن لا تشغل نفسك بهذا الأمر فقد انتهى ، وكان ما كان ، ولن أعدم وظيفة فى مكان ما . »

قال : « وما حاجتك إلى وظيفة وأنت موظفة ؟ يخيل إلى من يسمع كلامك أنك عاطلة ! . »

قالت : « ولكنى طردت ؟ فكيف أكون موظفة ؟ »

فهز رأسه وهو يبتسم ثم قطب وقال : « ومن هذا الذى

يجرؤ أن يطردك وأنا حى أرزق ؟ »

فوضعت يدها على يده وقالت : « خلنا فى الجد . . أرجو »
قال : « وهل أنا أهزل ؟ ألا تعلمين — أم ترانى نسيت أن أخبرك — أنك مستشارة خصوصية لى ؟ لقد كنت أظن أن الواقع من الأمر يغنى عن التبليغ الرسمى ! »

قالت : « شكراً لك ، وإنك لظريف ، وعطوف ، ولا أدرى ماذا كنت أصنع لولاك ؟ ولكنك تعلم كما أعلم أنى لا أستطيع أن أدعك تفعل هذا . . . وإنها لمروءة عظيمة ، ولكن . . . »

فقال : « إنك تؤلمينى يا صديقتى . وهذا الذى تقولينه لم يجر لى قط فى خاطر . أنا وأنت من رجال الأعمال — أعنى أنى أنا من رجال الأعمال وأنت من . . من . . أنظرى كيف تخذلنى الألفاظ فكيف بمن هم دونى امتلاكا لناصيتها ؟ نعم كلانا تاجر شاب ، وقد عرضت عليك عملا ، فإن التجار لا ينفقون أموالهم جزافا ؛ عرضت عليك هذا بالفعل لا بالقول، فرحبت به ، بالفعل أيضاً لا بالقول ، ويسرنى أن أبلغك رضاى عن حسن أدائك لواجباتك وإن كانت خفيفة هينة إلى الآن ، فما زادت على رفض الدعوات التى أتلقاها من أصحاب التيجان ، والإصغاء إلى آرائى القيمة فى الحياة والناس ، وقد كان أجرك

زهيداً أيضاً . . فنجان قهوة ، أو تذكرة سينما ؛ أو . . . عشاء خفيفاً . . . »

فقالت : « لا تمزح . . فإنى . . . »

قال : « لا تقاطعى من فضلك ، فإن حسن الإصغاء فى صمت وسرور هو أول واجب على المستشار الخاص ، كنت أقول إن واجباتك إلى الآن هينة وكذلك أجرك ، ولكنى قررت أن أضيف إليها واجبات جديدة ، وأن أزيد الأجر ؛ فإنه ينبغى أن يكون على قدر المشقة ؛ وعلى قدر الاجتهاد تكون الترقية . . . نعم ترقيتك من مستشارة إلى . . »

قالت : « لا أدرى كيف أشكرك . ولكنك تعلم أن هذا إحسان . . »

قال : « إحسان ؟ ياله من لفظ ثقيل ، قبيح ، وإن كان الفعل فى ذاته جميلا ! ولكن مالنا وللإحسان الآن ونحن نتكلم فى أعمال تجارية ؟ أرجو ألا تقحمى هذا اللفظ مرة أخرى فى أحاديثنا الجدية . واسمعى . لقد هدانى التفكير الطويل العميق إلى أن فلاحاً مثلى لا يفيده ما تعلم من التجارة التى حذقها علماً وعملا ، وأحاط بها خبراً ، إلا إذا طبق ما أفاد من المدرسة ومن تجاربه فى الحياة . وقد تعلمين أو لا تعلمين أن لى ضيعة عظيمة ، كانت أمى بعيدة النظر صادقة الفراسة فى نجابتى ،

فأورثتني إياها ، وخلفتها لي ؛ وفلاحونا لا يحسنون الزراعة ، فمن واجبي أن أتعلم وأعلمهم كيف يتقنونها ، لتكون الغلة أوفر. وهناك واجب آخر : ذلك أن فلاحينا قد يجيدون زرع الأرض ولكنهم لا يحسنون عرض المحصول للبيع ؛ وما أكثر ما يُوكَسون ويُبخَسون ، ويغبنهم سماسرة السوء ؛ وهم إذا ربحوا مرة يخسرون مرات ، لجهلهم بالتجارة . فواجبي — وأنا الخبير الحاذق — أن أعلمهم كيف يبيعون ، لأستفيد ويستفيدوا . ومن هذا البيان ترين يا صديقتي أن واجباتك كمستشارة لي ستكون عديدة وشاقة . وأنا واثق من قدرتك على الاضطلاع بهذه الأعباء الجسيمة ، بفضل ما اكتسبته من الخبرة في هذه الشركة ، وما استفدته مني في أحاديثنا الكثيرة .. وعلى ذكر الشركة أقــول إنه يحسن أن نذهب للقاء مولانا راتب ، فما أشك في أنه الآن قلق مضطرب يتساءل عن أين اختفيت ؟ وماذا يصنع بغيري ؟ » .

فسألته : « نذهب إليه ؟ وأنا . . . وأنا . . . ما الداعي ... »

قال : « وجودك ضروري ، لابد منه ؛ وأول درس يجب أن تتعلميه في وظيفتك الجديدة ، وإن كانت قديمة ، هو طاعة الرئيس . . . تعالى . » .

وذهبت معه إلى النادي وهي قلقة ، فألفيا راتب بك في

حجرة المكتبة يدخن « سيجاراً » ضخماً . وكان قد علم أن نسيما انقطع وكف عن الحضور ، فاطمأن وعاد يختلف إلى النادى فى أوقات الفراغ .

وقبل أن يدخلا عليه ، دعا نسيم الخادم وأمره أن يجيئه بكأس من الكونياك المعتق ، وقال لمحاسن وهو يدخل بها وبالكأس فى يده :

« لا تحسبى أن هذه الكأس لى ، فإنى لا أشرب خمراً ؛ ولكنها لمولانا راتب ، فإنه يوشك أن يتلقى صدمة ، وقد يحتاج إلى منعش ، وما أظن به إلا أنه ضعيف القلب وإن كان عالى الزعقات : على كل حال ، لا ضير من الاحتياط . »

ودخل ويده ممدودة بالكأس ؛ ورأى راتب بك هذا الموكب ، فدهش وقطب ؛ ووضع نسيم الكأس برفق على المنضدة أمام راتب بك وجلس إلى جانبه . وجلست محاسن إلى الخلف قليلا ؛ وتكلف المدير قلة الاكتراث ، وتظاهر بأنه لا يراهما ، وأقبل على سيجارته يمص وينفخ الدخان .

ولكن نسيما لم يتركه ، فقال بلهجة الأسف : « إن واجبى ثقيل ، وأنا أؤديه وأنا كاره له . فهل أنت مصغ يا راتب بك؟»

فقال راتب بك : « قابلنى غداً فى المكتب . »

فقال نسيم : « آسف ، فلن ترانى غداً فى المكتب . »

وقرب الكأس من راتب بك .

ومضى هو فى كلامه فقال : « خذ رشفة من هذا . تشجع ، وثق أن الصدمات لا تلبث أن يفتر أثرها وإن كانت تدوخ فى أول الأمر . وبعد أن تفيق تجد أن الشمس لا تزال تشرق ، وأن الدنيا ما زالت بخير . . »

فضجر راتب بك وسأله بحدة : « ماذا تريد ؟ »

قال : « العجلة من الشيطان . لقد كنت أريد أن أخفف من وقع الخبر الأليم بالتلطف فيه ؛ ولكن كما تشاء . . . اعلم إذن أننا قررنا — أنا والآنسة محاسن — أن نستقيل من عملنا بالشركة ؛ وإنى آسف،ولكن للضرورة أحكاما . ونصيحتى لك أن تتلقى هذا بالصبر . . »

فكاد الرجل يثب من الغيظ ، وهم بكلام ، ولكن الله لم يفتح عليه بأكثر من « أنت يا . . . يا . . . » ولعله خشى أن يخسر المعركة إذا هو جازف بمنازلة هذا الفتى الذرب اللسان — فأمسك وانحط على الكرسى .

وقال نسيم وهو يخرج ويجر محاسن : « ليس هذا ما كنت أتوقع . وإنى لأعلم أنها صدمة قوية ، فإن الخسارة لا تعوض ؛ ولكنى كنت أظن أنك أعقل وأذكى من أن تحاول إقناعنا بالبقاء . . . لا لا . . . كان ظنى بك غير ذلك . . »

وخرجا .

وتركا الرجل ينفخ ، ويضرب كفاً بكف . . .

— ٣ —

« هنئنى يا استاذى »

« مبروك . ولكن ما هى الحكاية ؟ »

« أصبحت مستشارة . . »

« مست . . مست . . تعنين . . ماذا تعنين ؟ »

« ألا تعرف ما هو المستشار ؟ يطرح عليك الموضوع ، فتبحثه ، وتدرسه ثم ترى فيه الرأى ، فيؤخذ بما ترى »

« فهمت . . أعنى . . ألا يمكن أن تبدئى من البداية ؟ »

فقصت عليه محاسن القصة . فهز رأسه وقال : « يخيل إلىّ أن هذا أمر له ما بعده »

قالت : « إنك سىء الظن »

قال : « ليست المسألة مسألة سوء ظن . وكل امرىء — إلا أنت على ما يظهر — يستطيع أن يفطن إلى الآخر من هذا الأول . ومن الجلى أن نسيما هذا يرمى إلى الزواج . »

قالت : « ولكن هذا مستحيل . . من أنا حتى يتزوجنى ؟ أما قلت لك إنه واسع الغنى ؟ »

قال الأستاذ ! « لا تكونى بلهاء : . الرجل يحبك ، ما فى هذا شك . وفقرك لا يعنيه ، لأنك أنت همه لا المال الذى عنده منه فوق الكفاية .»

قالت : « ربما . ولكن هذا لم يخطر لى قط ! ماذا أصنع الآن . . ؟ . »

قال : « لا شىء . تبقين كما أنت ، ولا تغيرين شيئاً من حالك معه ، حتى يخطو هو الخطوة الثانية »

قالت : وماذا يكون العمل حينئذ ؟ »

قال : « الأمر واضح . ترجعين إلى الطبيب لينجز لك وعده .»

قالت : « لا أستطيع أن أخدع نسيماً . . وأنت تعلم أن هذا هو الذى دفعنى إلى مجافاة محمود . . »

قال : « يا محاسن أطيعينى ولا تركبى رأسك . إنك فتاة حصان قاصرة الطرف ولست بفرور فاجرة . والذى كان ، إنما كان بسوء الحظ وكان الذنب كله لى ، وليس من العدل أن تبوئى أنت بإثمه ، وأن تظلى طول عمرك ضحية له ، فما جنيت شيئاً وإنما أنا الذى جنى وقد يسر الله النجاة ، ومن العسير أن تقنعى شاباً يحبك ويكبرك ويعرف فيك العفة والتحصن ، ببراءتك ، وإن كان لا شك فيها . وعهدنا بالرجل يكون كريماً رحيب النفس واسع العقل ،

يؤثر على نفسه فى كل شىء ، إلا فيما يتعلق بامرأة يحبها ويريدها لنفسه ، فإنه ينقلب أنانيا فظا لا يغضى عما يرى أو يسمع من هناتها ولو كان لا ذنب لها فيها ، ولا يتغافل عما كان أو يكون منها ، ولو كان فلتة وبرغمها . وهذا هو الأغلب والأعم ، وهناك من لا غيرة لهم ، وهؤلاء قلة ، ولا يقاس عليهم ، فاسمعى منى ، ولا تحمّلى نفسك وزراً ليس من العدل أن تحمليه ، ولا تضيعى نفسك وتشقيها بقلة العقل ، وبالإسراف عليها فى الظلم ، ولا تخيبى أيضا أمل هذا الشاب . ولو كان أسن ، أو أكثر تجربة للحياة وعثرات الحظ فيها لأشرت عليك بخلاف ذلك ، أى بالمصارحة ، ولكنه غنى مرفه لم يعرف إلا التوفيق ، ولم يشعر بغير الاطمئنان والثقة ، ولم يبل ما فى الدنيا من ظلم ونكد طالع وعرك ووطء وتفتيت . وقد يكون على خلاف المعهود فى أمثاله . ولكن السلامة فى الاحتياط والتحرز . فأطيعينى من فضلك تسعدى . »

فقالت : « إن عقلى مقتنع ؛ ولكن قلبى يحدثنى أن الأكرم والأشرف — إذا تكلم ، ولست أظنه فاعلا — أن أصارحه بكل ما كان ، بلا زيادة أو نقص . ولم لا ؟ لست متزوجة رجلا إلا بعد أن يعرفنى على حقيقتى بلا تمويه أو تزوير . »

قال : « هذا أكرم ولا شك . ولن تعدمى رجلا يفهم

ويعذر ويهمل الأمر كله ، ثم يجئ يوم يغضب فيه لأمر ما ، فيتحرش بك ويعيرك بزلة يحمل تبعتها سواك ، فى الحقيقة ، ويمن عليك بالصفح عنك فيفسد الأمر كله ويسود عيشك بعد ذلك . . كلا إن الذى أشير به أسلم وأحكم . . حتى نرى أى رجل هو — أعنى نسيما هذا . »

فترددت وقالت : « على كل حال ، لا يزال أوان ذلك بعيداً . »

قال : لست أراه بعيداً ، ومع ذلك يجب أن توطنى نفسك من الآن على أحد النهجين »

فوعدت أن تفكر ، وتفبته .

° ° °

وأقلق الأستاذ حليم ما سمع منها . وكان هو فى سريرته يؤثر المصارحة ، فإنها أقوم وأسلم فى النهاية ، ولكنه أشفق عليها أن تكفر بالعدل فى هذه الدنيا .

واستغرب أنه فاته فى حديثه معها أن يسألها عما تنطوى لنسيم هذا ، أهو يبلغ أن يكون حبا ؟ أوهو يقاربه ويسهل أن ينمو ، كالماء يعمق تحدره بمجراه ؟ ولا شك أن محاسن تستظرفه ، فإنه على ما يستفاد من كلامها خفيف على الأفئدة ، فوق أنه كريم معوان ، غير منان ، يعطى مبتدئا وكأنه هو الذى يأخذ ، ويصنع

معك الجميل ويزجي إليك الشكر كأنك صاحب الفضل فيه ، وأخلق بمن كان خفيف الروح ، سخي اليد ، ذرب اللسان ، حلو الفكاهة ، حسن المعاشرة ظريفها ، ان تُفتح له القلوب .
ولا ريب فى أنه يحبها وإلا لما صنع لها كل هذا . ولكن هل هى تحبه ؟ ولعلها لو سئلت لترددت ، فقد خيل للأستاذ حليم أن نسيما حملها وطار بها بجناحين من ظرف الشخصية وحلاوة اللسان ، فهى مُدَارٌ بها لاتدرى إلى أين هى ماضية ؛ لابل لا ترى أن فى طاقتها حتى أن تفكر لسرعة المر والخطف فيه ، ولما يشغلها من فتنة القول والعمل ، وتعجبها لجدتهما عليها أيضاً ، فما رأت من قبل أحداً كنسيم .

وماله ؟ ألا أثر له فى الموضوع ؟ أليس المال كل شيء فى دنيانا هذه ؟ أليس هو الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ؟ أليس كل أمر مرتهناً به إذا اعتبرت الواقع ؟ من يدرى ؟ فإن للمال لسحراً . وقد رثت حال محاسن ، وعانت ضنوكة غير هينة ؛ لا لفقر بأبيها ، فما أزف ولا أكدى ؛ وإنما طاش وماق ، وكان ما كابدت ، وثقل عليها من الشدة والشظف هو الذى دفعها إلى التماس الكُفية من طريق الوظيفة ؛ فالتقت بهذا الشاب ، وما كادت تخفق حتى دفع يده فانتشلها وأنقذها من العود إلى الحاجة والتطلب . فماذا يمنع أن تطمع فى خصب

العيش ونضارة الحياة ووفرة الخير والاستراحة من هذا الهم ؟ ولن تحتاج إلى تكلف التحبب إلى مثل نسيم ، فإنه محبب إلى القلوب .

وخطر للأستاذ حليم أنه قد يستطيع ان يمتحن مروءة نسيم ورحابة نفسه ، وسعة عقله ، ومبلغ استعداده للتسامح والإنصاف ، فيقص عليه قصة محاسن معزوة إلى غيرها ، ثم ينظر وقعها فى نفسه ؛ فإذا ساء الوقع ظل على ما أشار به عليها من الكتمان ، وإذا رآه يتلق الأمر بصدر واسع وإدراك صحيح ،كان لا بأس مما تذهب إليه محاسن من المصارحة . . فى أوانها . غير ان هذا يتطلب أن يعرفه أولا ، وان يخالطه زمناً متريثاً متربصاً ؛ فما يعقل أن يروى له الخبر فى أول لقاء لهما .

وصار السؤال : هل ترضى محاسن أن تمهد له هذا التمهيد ، وأن تدعه يمضى فى هذه التجربة ؟

ودار فى نفسه أن لو كان هو أصغر سناً ، وغير ذى زوجة وولد . ؟ ؟ لماذا قسم له أن تكون زوجته مستعصية عنيدة ؟ لقد كان يحبها ، وما زال غير كاره لها ، وما انفك مستعداً أن يصل ما انقطع ، ويستأنف ما مضى ، وصار كأنه من أخبار القرون الأولى ؛ ولكن هيهات ! ! وسيظل ولا معاذ له غير خياله وأحلامه ، وإنها لأطيب من الواقع ، فإن الحقيقة محدودة

بحدود الطاقة التى لاسبيل إلى مغالطة النفس أو الغير فيها ، وما يستفاد منها من المتعة ينقصه ، وكثيراً ما ينغصه ، ما تخطئه ولا تجده عند شريكك مما تطمع فيه ، وتتطلع إليه ، ولعلك كنت تحلم به . أما فى الخيال فإنك تتصور ما شئت كيف شئت ، على هواك ، وتنحل نفسك من الطاقة ما حلا لك ، وليس للمرء سلطان على الأحلام . ولكن الراسب فيما وراء الوعى يطفو فيها ، والكامن يبرز ، ويتمثل ويتجسد ، وتتألف منه صور بعضها مما يشتهى ، ففيها قدر من العوض عما حرمه بسوء حظه .

وحدث الأستاذ حليم نفسه أن أكبر ظنه أنه لطول ما عاش بين خيالاته وأحلامه ، خليق أن لايرضى عن الحقيقة لو تيسرت له ، فإنها لن تكون إلا دون ما يرتسم فى ذهنه من الصور . ثم راجع نفسه وقال : إن هذا شأن كل إنسان ؛ فما من إنسان إلا وهو يحلم ويتخيل ، إلا أن يكون بليداً مغلق النفس ؛ وما من أحد إلا وهو يدرك إلى حد ما ، بعد ما بين الحقيقة والخيال . وبعض الناس لا يبالى هذا الفرق ولا تعنيه إلا الحقيقة ومايفيد منها ؛ والبعض يلوذ بخياله ليسد له النقص ويعوض ما فاته ، وهؤلاء مساكين ، فإنهم إذا لجوا فى التخيل أو لجت بهم الحاجة إليه ، كانوا خلقاء أن يتبرموا بالحياة

ويتسخطوا حظهم ويستقلوا نصيبهم من خيرها . وأشقى الناس من كانوا مثله ، قد سلبوا الحقيقة كلها وحرموها أجمعها ، ولم يبق لهم من مسعف سوى هذا الخيال . وإنه ليسعف ولكنه لا يرضى ولا يقنع ، وما تزداد به النفس إلا اشتهاء لما عز مناله ، ولا تزداد به الأعصاب إلا تعباً وإعياء ، ولا تزداد به الطبيعة إلا تشويهاً ومسخا .

ورثى الأستاذ حليم لنفسه ، وتنهد وأحس أنه مشف على البكاء ، ثم كبح نفسه واستحى ان يتلق — حتى فيما بينه وبين نفسه — ما تجيء به الحياة بغير الصبر والجلد . وقال إن له أسوة حسنة فيمن يعيشون رهباناً وزهاداً ؛ ثم عاد يقول إن هؤلاء لا يكون حالهم خيراً من حالى إذا كانوا قد حملوا على الزهادة ، أما إذا كانت الزهادة عن رأى أو عقيدة فذاك حرى أن يعينهم على الاحتمال ، ويشغلهم ويصرفهم عما أشاحوا عنه . ثم هز رأسه وقال : ومع ذلك ما أظن بهم إلا أنهم يحتاجون إلى رياضة شاقة طويلة ، بل دائمة ، وإلى التلهى عما تركوا — أى نعم التلهى — بالعكوف على ما انقطعوا له . وتساءل : أترى لا تخايلهم صور ما زهدوا فيه ؟ لابد أنها تلوح لهم احيانا فتقض مضاجعهم وتؤرق جفونهم . وكيف يستقيم حال من يخالف آيين الحياة ؟ .

وسندعه لخواطره هذه فما لها انتهاء ، وإنه ليتعرج ويذهب بها هنا وهناك ، ثم يكر إلى رأس أمره ، ولا حيلة له يعرفها ولا مخرج يهتدى إليه ، إلا أن يتخذ خليلة ، وقد خطر له هذا مراراً فنحاه ، واستعاذ بالله منه ، واستبشع أن يطرف برأسه ، وحدث نفسه أنه حتى لو كانت نفسه تطاوعه لما عرف الوسيلة ، وضحك وقال : ثم إن الخليلة تكلف مالا ، يفتح الله ياسيدى ! الأحلام أرخص .

— ٤ —

وكانت أعمال « المستشارة » هينة طفيفة لا تأخذ من وقتها إلا قدر ما يضيع من وقت المترفات المنعمات فى المنازل والمطاعم ودور السينما . فهى فى بيتها معظم النهار إلا إذا دعاها إلى الغداء ؛ ثم تلقاه فيتنزهان ساعة ، أو يدخلان ملعباً ، أو يتنحيان ناحية فى « جروبى » أو « صولت » وما ماثلهما . ويتعشيان فى الأغلب ويفترقان .

وكان معها على ما عودها من الحذاقة الظريفة ، واللطف والتحفى فى غير مبالغة ، ودون تكلف للتودد . وكان مرتبها عشرة جنيهات غير ما تحتاج إليه لثيابها وزينتها . وقد اعترضت على هذا وقالت إنها لا تستحق منه قرشاً ، وإنه يعودها البذخ

فماذا تصنع إذا فقدت « وظيفتها » الجديدة ؟

فقال لها : « تعالى نتفاهم ، فإنى أراك تجورين علىّ ، وتوسعين نطاق حقوقك ، وتعتدين بذلك على حقوقى . نعم ، فإن عمل المستشار هو أن يشير لا أن يعترض ، والاعتراض هو عملى أنا . ويجب أن يعرف كل منا وظيفته ويقف عند حدودها ، فإنى أخشى أن تتداخل الحدود ويختلط الأمر ، ويضطرب الحال . وقد عرضت عليك ، وقبلت ، وظيفة مستشار ، ففرغنا من هذا . وأنا أقر وأعترف أن المرتب قليل ، بل ضئيل ، إذا قيس إلى الجهد المضنى الذى تبذلينه ، وإنها لمروءة منك أن ترضى به . وستتسع أعمالنا وتعظم بفضلك فيتسنى حينئذ أن نجزيك التجزية العادلة . . . »

فقاطعته ضاحكة : « أنا أقول إنه كثير ، فتعتذر لى من قلته كأنى كنت . . . »

فقال : « آه . اختلاف رأى . . . فلنبق مختلفين إذا شئت ، فإن رقى العالم لا يتيسر ، إذا كان الناس كالنسخ العديدة من صحيفة أو كتاب ؛ فخلك على رأيك فى الاستكثار ، وسأبقى على رأيى فى الاستقلال ، وكلما لاحت فرصة تجادلنا . . . ومن يدرى لعلنا نتفق آخر الأمر . . . ربما . . . »

فلم تجد فائدة من الكلام .

وكانت إذا خلت بنفسها تتساءل عن نوع شعورها نحوه. أهو حب؟ وتهز رأسها، وتقول إنها تستظرفه جداً، وتعده صديقاً حميماً، وتحله من نفسها محلا لا ينازعه فيه منازع، وتشكر له حسن صنيعه معها، ولا تجحد فضله، بل نعمته عليها؛ ولكنها لا تنطوى له على ذلك الحب الذى يلقى بالمرأة على الرجل ويستغرقها ويأخذ عليها كل متوجه.

واستغربت، وهى تدير عينها فى قلبها، أن تجد أن للأستاذ حليم علوقا ونوطة بقلبها لا تشبههما ولا تدانيهما مودتها لنسيم. فإن نسيما أقرب إلى الأخ أو الخدن؛ أما حليم فإنها تشعر له بحنة — خفيفة، نعم، ولكنها حنة — تورث قلبها خفقة، وقد سايرت حليما وانقادت له، ولكنها لا تشعر أنها يمكن أن تنقاد على هذا النحو لنسيم، وإن كانت غارقة فى نعمته.

وكانت لها جارة فى مثل سنها، رأتها تتمشى عصر يوم فى الحديقة الواسعة المهملة، فأقبلت عليها تحادثها، كما تفعل أحياناً.

وكانت الجارة قد راقبت محاسن بعد أن لفت نظرها أنها صارت أنفس ثياباً وأكثر احتفالا بزينتها، فما لبثت أن استطردت إلى ما جاءت من أجله وقالت: «هذا يوم جميل لاينقصه إلا ...»

وأمسكت وحدقت فى وجه محاسن، فقالت هذه: «إلا ماذا؟»

قالت الجارة : « إلا الحبيب . »

فأدهشت محاسن هذه الصراحة ، ولم ترد على أن زامت .

فضحكت الجارة : « أيدهشك قولى يامحاسن ؟ ربما . ولكن ألا تتمنين ، عند ما تنقشع السحب ، وتصفو السماء ، وتسطع الشمس ، وتحمى الأبدان ، أن يقبل عليك حبيبك ، والحب يطل من عينيه ، وذراعاه مفتوحتان ، وشفتاه متهيئتان للتقبيل والهمس الحلو؟ »

فاضطرم وجه محاسن ، فما خاطبها أحد - رجل أو امرأة - بمثل هذا الكلام الصريح من قبل .

وقالت الجارة : « ليس فى هذه المنى شىء منكر ، فإنها طبيعية . وإذا لم يشعر الشاب والفتاة بهذه الحاجة ، فلن يكون زواج ، وإذا امتنع الزواج انقطع النسل وخربت الأرض . »

فقالت محاسن محتجة : « أى كلام هذا ؟ . »

قالت الجارة : « ماله ؟ إن الحب طبيعى ، وقد خلقنا له ، فلماذا تخجلين منه ؟ » .

فلم تجب محاسن ، فألحت عليها جارتها وسألتها : « هل تزعمين أنك لم تفكرى قط فى الحب ؛ أو لم تحلى بحبيب ؟ »

قالت محاسن : « ربما . . . أحيانا . . . ولكن . . . »

قالت : « إذن لماذا كل هذا التكلف ؟ »

قالت محاسن : « ليس هذا تكلفاً ولكن الكلام ... عيب »

قالت : « عيب ؟ كلا ، إن الحب — الحب الحقيق — شيء مقدس لا عيب فيه ، وإلا فلماذا يتزوج الناس ؟ »

فسكتت محاسن ، وخطر لها أن لعل فريدة جارتها الجريئة أعلم منها وأفهم وأدرى ، وقد تستطيع أن تفتح لها عينيها ، وتخرجها من حيرتها ، فسألتها :

« قولى لى يافريدة : كيف تتصورين الحبيب الذى تتمنين؟»

قالت فريدة : « الحبيب الذى أتمنى ؟ ما أكثر ما رأيته بعين خيالى . . طويل ... نحيل ... جميل الشعر ناعمه ، أسود العينين ، خفيف الدم ، بسام مليح الفكاهة ، يعيش من يوم إلى يوم ، ولا يصدع رأسه بالتفكير فى الغد ؛ ويداه طويلتان صغيرتان رقيقتان ، ووجهه شاحب قليلا ، ولكنه غير متهضم أو دميم ، وحديثه يحرك الخيال »

فقالت محاسن ، قبل أن تستطيع كبح لسانها : « كلا . . إنه لا يشبه ما أتخيل . . . فالرجل الذى أراه فى أحلامى — أحلام اليقظة — طويل عريض الكتفين ، متين البنيان ، أسمر اللون ، حسن الشورة ، فمه قوى ، وذقنه فيها نقرة صغيرة ، وهو مرهوب البـــأس ، ولكنه رقيق القلب ، عطوف على الضعفاء ، ولا يهاب شيئاً ، وهو مرح ، يقهقه حين يضحك ،

ولكن فى صوته نبرة حزن لأنه قاسى فى حياته شدائد وذاق آلاماً . . . »

وأمسكت فجأة ، فقد كانت كأنها تتكلم وهى نائمة .

فقالت فريدة : « أنا لن أرضى عن حبيبى هذا إلا إذا كان حسن الهندام . فإنى أكره الرجل الذى يهمل مظهره ، ويترك شعره يطول أو لحيته تنبت ، ولا يكوى ملابسه ، وعندى أن الرجل ينبغى أن يعنى بثيابه كالمرأة . . . »

فقالت محاسن : « حسبنا أحلاماً »

ولما قابلت نسيما فى ليلتها خجلت ، فما كان فيه شىء من صفة الحبيب الذى تتخيله وتحلم به . .

الفصل الرابع

— ١ —

ألحت على محاسن صورة الحبيب المتخيل ، بعد حديثها مع جارتها ، وكانت قبل ذلك سابحة على متن التيار ، وهى فى شاغل من شئون البيت ، ومشقة التدبير والسخط على أبيها ، واستهجان سيرته مع صاحبته ، وإشفاقها على أمها ، وما جرّت عليها علاقتها بالأستاذ حليم ، وما احتاجت إليه من كسب الرزق بعرق الجبين . وكان مما ساعدها على الانصراف عن التخيل أنها وطنت نفسها على الرضى بالعزوبة والسكون إليها بعد تلك التجربة الأليمة التى أوقعها فيها سوء حظها ؛ وكانت تعود كل ليلة إلى بيتها مهدودة القوى ، وإن كان عملها فى الشركة قبل فصلها منها هيناً ، لأنها لم تألف العمل ، ومواعيده المنتظمة التى لا تختلف فى صباح أو مساء . فكانت تضطرب إذا فاتها ترام ، وتشفق أن تتأخر ولو دقيقة واحدة ، فمشيها أشبه بالهرولة ، وأعصابها لا تهدأ ، وقلبها لا يكف عن الخفقان . وكانت إذا انقضى اليوم بسلام وبلغت بيتها تتشهد ، ولا تكاد تنطرح على الفراش حتى يأخذها النوم . فإذا حلمت ، لم تر إلا المدير المرهوب ، أو الوالد الأخرق

وإلا صوراً لا تطيب ، من البأساء والضراء .

وجاء نسيم ، فطاب العيش ، واستراحت من العمل؛ ولكن الزواج ظل لا يجرى لها فى خاطر لما وقر فى نفسها ، حتى فتح لها الأستاذ حليم عينها ونشر المطوى من الأمل ، وعرفها أن ما كانت تظنه مستحيلا ، قريب المنال ، وأنه ما من معضل إلا وله حل ما ، فتهيأت نفسها تهيؤاً جديداً ، وعادت الأرض التى أصارها الإهمال والترك مواتاً وجماداً كنوداً ، حرة جيدة التربة مرجوة الريع . ثم كان حديث الجارة فريدة ، وقد تلقته أول الأمر بالامتعاض مما ينطوى عليه من تطلع ، ثم ما لبث على قصره أن أيقظ خيالها الذى كان قد بدأ يتقلب ويتنبه ؛ فطافت برأسها ، فجأة ، تلك الصورة لما كانت فى قرارة نفسها وأطواء ضميرها المحجوب عن ناظرها أو إدراكها ، بما هى فيه من الهم والكرب ، تشتهى أن يكون عليه الحبيب .

وصارت ، بعد ذلك ، فى غدوها ورواحها مع نسيم ، لا تزال تنقل عينها منه وتديرها فى قلبها ، وتقيس الحقيقة الإنسانية الماثلة أمامها فى صورة حية من اللحم والدم ، إلى الصورة التى كانت مكنونة فى أصداف من لأواء العيش ، فَشُقّ عنها وبرزت ، وأخذت معارفها تتجسد ، وألوانها تتبدى وتعمق ، وسماتها تتضح ، وكثر على الأيام تأملها لها ، وطالت إجالة

العين فيها حتى صار يخيل إليها أنها تنظر إلى رسم بارز أو مجسم، وألفت — شيئاً فشيئاً — أن يرف لها قلبها ، ويفتر لها ثغرها ، وترق لها نظرة عينها وتلين ، وأن تناجيها ، فى خلوتها ، وتحاورها ، وتنشىء معها أحاديث تفيض عذوبة وحلاوة ، وتتخيل لقاءها مع صاحبها ، فى الحقيقة ، على أشكال شتى وفى أماكن عدة ، وفى ضروب من الثياب متعددة الألوان ، متفاوتة الوشى ، والتفصيل ، مختلفة النسيج . وكانت ربما فتنتها هذه الصور التى تتعاقب على عينها ، وهى مع نسيم ، فتشرد نظرتها وتشخص وقد ثبت حملاقها . فتبدو له كأنها قد نأت عنه وهى إلى جانبه، وغابت وهى قيد لحظه ، فيتعجب ، ويحمل هذا منها على محمل الرضى بما هى فيه ، ويؤوله أحياناً بأنه هو شهوم الحب ، ويتساءل حب من يا ترى ؟ حبه هو ؟ أم حب سواه ؟ ومن يكون سواه هذا وما يعرف أنها تلتق بغيره ولا عهد منها إلا الصدق والصراحة فى إطلاعه على أحوالها وأمورها جميعاً . . ؟

ولكنه كان إمرءاً فيه أناة ، وميل إلى أخذ الأمور مأخذ التهوين ، فكان يقول لها مفاكها على عادته :

« مم . . يظهر أن مستشارتنا تعبت ، وبرح بها فرط اجتهادها لنا . . أما والله إن آل نسيم لأنانيون . . كيف يتركون

مستشارتهم المخلصة ترهق نفسها هذا الإرهاق . . كلا . . . هذا لا يجوز فيجب يا آل نسيم أن تعطوها قسطاً من الراحة . وإنى بلسانهم — أو ألسنتهم جميعاً — أسألك : « ما قولك فى إجازة . . إجازة لا تطول حتى تعطل الأعمال ، ولا تقصر فيقل بها الانتفاع ؟ »

فتفيق ، وترتد إليه ، وتبتسم له ، وتسأله : « ماذا كنت تقول ؟ معذرة . فقد كنت كأنى فى عالم آخر »

فيقول : « ما أذكاك يا نسيم وأحد فؤادك ، ولا عجب فإن آل نسيم كلهم لوذعيون . أى نعم يا صديقتى المستشارة ، فإن الذى كنت أقوله — وفاتتك البراعة فيه لسوء حظك — ليس الا شاهداً واحداً من آلاف من الشواهد على هذه اللوذعية التى شاعت فى آل نسيم علوا وسفلا كالوباء ، وتمثلت خاصة فى المتشرف بخطابك . كنت أقول — ولا بأس من أن أعيد ، فإن أمثال هذه البراعات تحلو على التكرار — أن بك حاجة إلى أن تجدى نفسك فى عالم آخر ، كما قلت تماماً . وبعبارة أخرى يجب أن نتعطف فنمنحك إجازة من هذه الواجبات التى تضنيك ، تعودين بعدها أنضر وأنشط ، وأقدر على الاضطلاع بأعبائك الجسام . فما قولك ؟ »

قالت وهى تضحك : « إجازة ؟ من قال إنى محتاجة

إلى إجازة ؟ ومن أى شىء وأنا فى إجازة دائمة ؟ »

قال : « شكراً لك على هذا اللطف ، فإنه دليل الإخلاص فى العمل . ولكن فراستنا الصادقة تقول لنا غير ذلك — ومن أجل هذا قررنا أن نمنحك إجازة بمرتب مضاعف ، أو غير محدود ، للاستجمام والراحة من عناء الأعمال . وقد وقع اختيارنا لك على الأسكندرية . تعرفينها ؟ سمعت بها ؟ »

قالت ، وهى لا تزال تضحك : « ما رأيتها قط . »

قال : « هى ثغر صغير ... صغير جداً ... قد الكف .. ولكنه على صغره ، يقف سداً منيعـــاً فى وجه البحر ، فلا يزال البحر يكر عليه بأمواج كالجبال ، ولا يزال هذا الثغر الصغير الباسل ، يدفعه ويرده ويترك لججه المتعاقبة متكسرة على صخوره . والمعركة لا تنتهى ، ولا تفتر فى ليل أو نهار ؛ ولكن الثقة وطيدة بهذا الثغر الباسل ، وبقدرته على صد كل كرة ، وتمزيق كل حملة . فما قولك فى أن تقلدى المراسلين الحربيين ، وتذهبى إلى هذه الساحة الأبدية لتوافينا بأحدث أنباء هذا النضال ؟ »

فسألته : « هل مللتنى ؟ . »

قال : « إنما المرأة لا تكون أبداً إلا كما خلقها الله لا كما يريد نسيم أن تكون ! على أن هذا لا يسوءنا لأنا ندرك بفطرتنا

الذكية أن المرأة المخلصة لطبيعتها هى التى تستحق أن يعنى بها الرجل ؛ ولهذا نعنى بك لأننا نراك مخلصة لأنثويتك . كلا ، لم نملك يامستشارتنا العزيزة وإنما نؤثر لك الراحة ، أو نرجو أن تعودى إلينا من معركة ساحل بحر الروم وأنت أشوق إلى مجلسنا الظريف ، وأطلب لحـــديثنا اللذيذ ، وأحرص على الاستماع الى آرائنا النفيسة ، وأنشط فى أداء واجباتك الكثيرة الأخرى . »

فأطرقت شيئاً ثم رفعت رأسها ونظرت إليه جادة وقالت : « ألا تمهلنى ؟ »

قال : « لماذا ؟ القطار حاضر ، والأسكندرية تنتظر مقدمك السعيد بلهفة . »

قالت : « لـكأنى بك تريد أن تحملنى الساعة وتضعنى فى القطار وتدفعه بيديك . . ما الداعى الى العجلة . ؟ »

قال : « لاداعى سوى أنى أخشى على الوردة الذبول فى هذا الجو الثقيل . »

وكانت هذه أول عبارة جرى بها لسانه مما يشبه أن يكون إعراباً عن إعجاب ، أو يقرب أن يكون غزلا . وكانت هى تحمد الله على اتقائه أن يقول شيئاً يجرى هذا المجرى ، فقد كانت تخشى أن تضطر إلى تخييب أمله . وحينئذ يكون ماذا ؟

بأى لسان تقول «لا» وهو رب نعمتها ؟ وكيف تطيق أن يظن بها الجحود، وهى غير جاحدة ؟ وإنها لتعلم — على الأقل مذ نبهها الأستاذ حليم — أن هذا حال لا يمكن أن يدوم، وأنه لامعدى عن الانتقال إلى حال أخرى . وها هو ذا قد أجرى لسانه بأول كلمة تشير إلى قرب الانتقال ووشك التحول . أفلا يحسن أن تغتنم الفرصة التى أتاحها لها وتفر الى الأسكندرية وتقضى فيها أياماً توسع فيها هذا الأمر تفكيراً وتدبراً . . ؟

ولقد تلطف فأشار إلى أنه سيدعها وحدها، ويتخلف هو فى القاهرة، فنى مقدورها وهى بعيدة عنه، أن تنظر فى أمره وأمرها معه، وأن تتأمل ما تحسه له وهى نائية عنه، وأن تشاور نفسها فيما عدا ذلك أيضاً — فى مستقبلها معه، أو بمعزل عنه، إذا استقر رأيها على التأبى والنفور، وفيما ينبغى أن تحدثه أو لا تحدثه به إذا آثرت الرضى بما يخطو إليه ببطء وعلى حذر . !

دار هذا كله بنفسها فى مثل لمح البصر، فقالت له : « إذا كنت تبغى جاداً أن أسافر، فأنا أفعل ما تأمر . وإن كنت لا أشعر أن بى حاجة إلى ذلك، ولا أعرف لماذا تبغيه . . . على كل حال . . أمرك ! وماذا أقول غير ذلك ؟ »

— ٢ —

« معذرة . . . هل بيننا معرفة ؟ . »

فهزت محاسن رأسها ، أن لا ، ووجهها كالجمرة .

وكان نسيم قد تخير لها مكاناً خالياً فى القطار ولبث معها ، حتى دق الجرس إيذاناً بالرحيل ، ثم وقف على الرصيف يودعها ضاحكا .

ولم تجد محاسن مشقة فى إقناع أمها بأنها ندبت لعمل فى الأسكندرية . أما أبوها فلم تكن بها حاجة إلى استئذانه ، وإن كانت فى سريرتها تخشاه . ولكنه كان يبيت فى حيث لا يعلم أحد ، ويغيب يوما أو يومين أو أياماً ، ثم يؤوب على غير انتظار ، ويكتفى بأن يقول إنه كان فى مهمة ، ولا يسأل عن شىء ، أو أحد ، كأنما يشفق أن يسأل هو أيضاً ، إذا فتح هذا الباب .

ولبثت محاسن وحدها دقائق ، فتناولت قصة بوليسية وهمت بالقراءة ، وإذا برجل يدخل ويضع حقيبة ضخمة على الرف ، وينحط على المقعد أمامها ، فثقل عليها أن يتطفل على وحدتها غريب ، ورفعت رأسها وألقت إليه نظرة استهجان لتطفله واستثقال لوجوده . وما كادت تصعد طرفها إليه حتى دهشت وشخصت . فقد كان الرجل تمثالا حياً لمن قالت لجارتها

فريدة إنها تحلم به — طويلا ، أسمر اللون ، ملوحاً ، عريض الكتفين ، أرسخ ، حاد العين كالصياد ، قوى الفم ، بارز الذقن متينها . .

أخذت عينها هذا كله فى أسرع من رد الطرف — لولا أنها لم ترد طرفها لفرط دهشتها ، فظلت عينها عليه . والراجح أن محياها فضحها ، ونم على ماخالجها من العجب والسرور ، فقد خلع الطفيلى طربوشه وحسر عن رأسه ، وكان قصير الشعر منتصف المشيب .

وهمت ، لما سألها هل بينهما معرفة ، أن تقول « نعم » ، فإنك أنت بطولك وعرضك الذى أراك بعين خيالى حين أحلم بالرجل الذى أشتهى أن يكون بعلى ، ولكنها عضت على لسانها ولم تنبس ببنت شفة ، وهزت رأسها منكرة أن تكون ثم معرفة ، وصبغ وجهها الحياء فزاد وضاءة .

وأمسك الرجل واضطجع ، ومضت ثوان أو دقائق أو حقب ، وإذا بها تقول له :

« أحسب أنك تقول فى سرك إنى جريئة ، أوسيئة الأدب . ولك العذر . ولكن الحقيقة أنك توأم رجل أعرفه — نعرفه — من زمان طويل . »

ولو طاوعت نفسها لقالت له : إنها لم تعرف هذا الرجل

المزعوم إلا فى أحلامها . .

فتبسم الرجل — الحقيق — وقال : « صحيح ؟ واثقة أنى لست به ؟ اسمى حمدى — حمدى الدينارى . »

فاتقد محياها مرة أخرى ، وهزت رأسها ثانية — ولكن لسانها لم يخذلها فقالت :

« واثقة . ولكن اسمك أيضاً ، يخيل إلىّ أنه مألوف . لا أدرى لماذا ؟ .

فقال : « كلا . . لا أظن أننا التقينا من قبل ، فما كنت لأنسى هذا الوجه لو كنت رأيته . . »

فعاد الدم القانى فتدفق إلى وجنتيها .

وآنست منه رغبة فى الحديث . فلم تصده ، فقالا فى الجو ، ثم فيما يمران به خطفاً ، من الحقول ، وعلمت من كلامه ولهجته أنه يؤثر الريف على المدن . وخيل إليها أن بينهما اتفاقاً فى الذوق والميول .

وقالت لنفسها لما دنا القطار من بنها : « هنا سينزل ، ولن أراه بعدها أبداً ، وكان هو يسأل نفسه : أترى يليق أو يحسن أن أسألها عن عنوانها قبل أن تنزل فى بنها ، وينتسخ الحلم إلى الأبد ؟ »

ولكن بنها جاءت ومضت ، وهما جالسان يتحدثان ، وقد

تنفس كل منهما الصعداء ، أو تشهد ، في سره .

وأشرفا على طنطا ، فأيقن كلاهما أن صاحبه مفارقه فيها ، ونفد صبرها قبل صبره ، فأخبرته — لتستدرجه — أنها ذاهبة الى الأسكندرية وأنها ستقضى فيها بضعة أيام ، وأن أحد معارفها دلها على نزل حسن فى الرمل على ساحل البحر — فى جليم — فأشرق وجهه والتمعت عيناه وقال إنه هو أيضاً ذاهب إلى الأسكندرية . ولكنه سيكون فيها ضيفاً على صديق له . .

ونزلا فى محطة سيدى جابر ؛ وقال لها وهما يخرجان :

« هذه السيارة العتيقة لصديق ، فهل تأذنين لى فى إبلاغك حيث تريدين ؟ »

قالت : « هذا لطف منك ، فشكراً »

وكانت تود لو استطاعت أن تظهر التردد ، أو أن تقول له إنها لا تحب أن تكلفه عناءً أو تؤخره ، ولكنها أحست أنه لا محل لهذا التكلف معه .

ولما بلغا النزل الذى اختاره نسيم لها وقف معها على بابه هنيهة ويدها فى يده وسألها : « هل لى أن أطمع فى لقائك مرة أخرى ؟ . »

قالت : « لم لا ؟ إذا شئت . . إنى هنا وحدى ولست أعرف أحداً »

قال : « أشكرك ، فما رأيك فى أن نقضى النهـــار غداً فى أبى قير ؟ »

قالت : « أنت أدرى بهذا البلد ، فاختر ما يحلو لك »

قال : « حسن . وسأمر بك فى منتصف الساعة العاشرة ، يوافقك هذا ؟ »

وهكذا دخلت محاسن هذا النزل ، وقلبهـا يغنى ويرقص ، والسرور يلفها فى شملة وردية .

ومر الأسبوع يخطف كأنه ساعة ، وكانت تكتب إلى قسيم ، تصف له بهجتها واغتباطها بمقامها ، فجاءها منه كتاب ينبئها أنه ذاهب إلى بلدته وأن فى وسعها أن تقضى أسبوعا آخر ، فأحست أنها وُهبت أسبوعا ثانيا من حياة الفراديس .

وارتفعت المعرفة إلى مرتبة الصداقة ، وتحولت الصـداقة بسرعة إلى ما هو أدق وأعمق . ولا عجب ، إذا ذكرنا أن هذا كان رجل أحلامها ، وأنها كانت تعرفه طول حياتها .

وكانت محاسن ربما قلقت أحيانا ، فجفـاها الرقاد ، فقـد كانت تحبه حباً مستغرقا ، وتعرف أنه يعرف ذلك ، ولا يخفى عليها أنه يبادلها حباً بحب ، كأنما كانت تشعر بالتيـار النفسى الذى يجرى بينهما حين يلتقيان ، أو تلمس يده يدها أو تنظـر عينه فى عينها ، ولـكنه كان لا ينطق ، ولا يفصح ، وكان يبدو

أحياناً ساهماً واجماً شارد اللب كأنما يطوى أضلاعه على هم . فكانت تتعجب وتقلب الفكر فلا تهتدى ، حتى كان يوم قصدا فيه إلى موضع صخرى قصى على ساحل البحر . فمد يده إليها ليعينها على الانتقال من صخرة إلى صخرة ، فأهملتها ، وصعدت فوق صخرة كبيرة أشرفت منها عليه ، وكانت الشمس على محياها الصابح والهواء يعبث بخصل شعرها ويردها عن جبينها الواضح ، فراعه حسنها ، وقال :

« إنك هكذا أجمل من ملكة على عرشها . »

فأطلقت ضحكة فضية ، وصوبت إليه عينها فزلت قدمها ، فصرخت وارتمت بين ذراعيه ، فأحاطها بهما ، وطوقت هى عنقه ، ولبثا هكذا هنيهة أو دهراً فيما يحسان ؛ ثم إذا بالشفاه تلتقى عفواً فى قبلة طويلة . ثم تحاجزا قليلا ، ونظر كل منهما إلى صاحبه :

قال : « كنت أحس أن هذا سيكون لا محالة . »

قالت : « وأنا أيضاً ، والحمد لله . »

فما راعها إلا أنه أقصاها عنه بلطف وقال : « لا تقولى هذا . تريثى حتى تعرفى . . . فإن هناك أشياء يجب أن تعرفيها أولا . »

وتناول ذراعها مترفقاً بها ، ومضى بها إلى السيارة التى تركاها

على الطريق فدخلا فيها ، وقلبها يعصره الأسى ، ووجهه ناطق بالألم المر .

وانطلق بالسيارة ينهب الأرض ولا يبالى أين يذهب ، وهى إلى جانبه لا ترى شيئاً مما حولها أو أمامها ، حتى خرجا إلى الطريق الذى ينتهى إلى الريف فوقف .

وقال لها : « قلت لك إن هناك أشياء يجب أن تعرفيها قبل . . . »

قالت : « يكفينى ما أعرف وتعرف ؛ وما عدا ذلك لا قيمة له عندى وليس يعنينى أن أطلع عليه . »

قال : « كلا . وستعرفين أنى على صواب بعد أن تسمعى ما سأقصه عليك . »

وسكت برهة ، وأرسل عينه أمامه ، وبدا كأنه يعالج أن يجمع متفرقا ، أو يختصر مطولا ، ثم التفت إليها ، وأراح أنامله على راحتها وقال :

« كان ينبغى أن أقول لك هذا من قبل ، ولكنى لم أكن أظن أن الأمر يبلغ بك هذا ، وقد نظرت إليك فى القطار فأحببتك ، ولكن لم يدر لى فى خلد أن تحبنى فتاة رائعة مثلك ؛ ولقد فاجأنى حبك فأحسست لحظة أنى ميت بعث من قبره ، غير أنى ما لبثت أن عدت إلى قبرى — لفت الحقائق المرة

كفنى علىّ مرة أخرى وردتنى إلى التراب والظلمة — لا تقاطعى فإنك لا تعلمين — أى نعم ، فإنى رجل ولا كالرجال .. رجل باع نفسه .. تتعجبين ... ؟ لا أعنى أنى بعت نفسى للشيطان ، وإنما أعنى أن امرأة تزوجتنى ... هى التى تزوجتنى لا أنا .. . وأحسب أنى أدير لك رأسك بهذا الكلام الغامض ، فيحسن أن أقص عليك القصة . أنا رجل فلاح متوسط الحال ، أملك بضعة فدادين ، ليس معولى عليها ، فإنها قليلة وغلتها ضئيلة ، وكان فى وسعى إصلاحها فيكثر ريعها . وكان من الميسور أن أستأجر غيرها من الأرض الجيدة ، وأعمل فى هذه وتلك فأعيش فى رفاهة ، ولكنى آثرت الأسهل . فعملت فى ضيعة كبيرة لرجل من السادات ، وقف أرضه على بنته دون زوجته وإن كانت سيدة يضن الزمان بمثلها . ومات الرجل ، فصار الأمر كله إلىّ ، فأنا المشرف على الزراعة ، ولكنى لم أخن الأمانة، فبقى مالى الذى أعيش منه هو أجرى، والقليل الذى تغله أرضى. وكبرت الفتاة، وصارت من الحوريات الرعابيب ، وأنا أزداد كل يوم تعلقاً بها ووفاء لها .. وقدمت يوماً موكومة موقومة . لا لا لا .. ينبغى أن أوجز مخافة أن تظنى أنى أحملها التبعة وأبرىء نفسى من الضعف والطمع ، ولهذا أقول بإيجاز إنها تزوجتنى .. أى نعم .. قالت لى كن زوجى ، فكنت . وقالت

إنها ستحتفظ بالعصمة فى يديها ، فقبلت عن طيب خاطر ، فقد حسبتها تخشى على مالها : ولكن الحقيقة التى عرفتها بعد ذلك أنها لم تتزوجنى لرغبة فىّ ، بل فراراً ممن تحبه هى .. لا تستغربى فإن لها لحكاية ، وحكايتها أنها أحبت فتى وأحبها أيضا ، وهو جدير بها وإن كان لا مال له ، فقد رأيته وعرفته ، ولكن قومه فيهم إباء ، فهم يستثقلون أن يكون ابنهم فقيراً وامرأته ذات ثراء ، ويخشون أن يشقيه ويشقيهم ذلك ، وهو أيضا شديد التحرج لا يرضى أن يرضخ له من مالها ، فألفت نفسها مقبلة على حياة لن يكون نصيبها منها إلا الشظف بالقياس إلى ما تعودت ، والمال عندها مثل التراب فى الكثرة وفى الزهد فيه ، ولست ألومها فما من شك فى أن إسراف صاحبها فى التعفف كان خليقاً أن يشقيها ، ولكنه كان من حق عليها ، وقد اعتزمت أن تهرب منه إلى ، أن تفضى إلىّ بالحقيقة ، على أنى لا أبرئ نفسى ، فقد كان ينبغى أن أتريث وأفكر وأستجلى سر إقبالها علىّ بغتة ، وأحسبنى طمعت فى رغد العيش ولينه وإن لم أطمع فى مالها ... على كل حال . . . هذا ما كان . . . ولست أشكو ولكنى أقول ما أقول تقريراً للواقع ، وما زلت زوجها ، ولكن بالاسم ، وهى تحملنى معها وتبدينى للناس هنا وهنا ، وتخلطنى بأصحابها ، ولكنى لا أختلط ، لأنى لست منهم ، ولا هم منى ، ولست فيما

أعلم ضيق الصدر، وأستطيع أن أقول إنى لست فظاً ولا شكسا، ولكن هؤلاء الذين تجرنى إلى مجالسهم وتدور بى معهم وتكلفنى أن أنهز معهم بدلوهم ... أولى بهم أن يكونوا فى المحابس وعليهم القضبان، فإنهم لا أكثر ولا أقل، فيما أرى وأحس، من قردة، وعسى أن أكون ظالماً لهم. وأعترف أنهم يكرموننى ويلاطفوننى، ويحتفون بى — لا أدرى لماذا ؟ لأجلها على ما أظن — ولكننى مللت، ولم أعد أطيقهم، وقد صارحتها بذلك، وآذنتها بالفراق، ولكن الفراق ليس معناه الطلاق، فإن الأمر لها وليس لى، وأحسبها ستُجرى علىّ نفقة . . . (وقهقه) ولم يبق أمامى إلا البحث عن عمل آخر أكسب به رزقى . . . والآن وقد عرفت الحقيقة كلها، وتبينت أى رجل أنا، فهل لاتزالين تحمدين الله ؟ . »

وكانت محاسن — ككل بنات حواء — تستطيع، وتحسن أن تتكلف، ولكنها لم تتكلف فى هذا الموقف شيئا، فقد غضبت — له — وتغير وجهها من الحرد وقدحت عينها شرراً، مما يحتدم فى جوفها، وكان هذا مظهر رقة وعطف لم يعرفهما حمدى من قبل، فلا عجب إذا كان حبه قد شب فجأة عن الطوق.

وانطوت يده على أناملها، وانثنى رأسه، ولثمت شفتاه كفها. وهمس !. .

« أحسبك تعرفين أنى مجنون بك ؟ »

قالت : « أعرف ذلك — حمداً لله . . فإنى أنا أيضاً مجنونة بك . »

فانتفض ، فقد كان حسبه منها ما بدا من عطفها ، أما . . . .

وقال يزجرها : « محاسن . ! »

فهزت رأسها ، وهى شاخصة لاتطرف ، وقالت : «صحيح . صدقنى . »

فطوقها ، وأراح خدها على خده ؛ وقال كأنما يحدث نفسه :

« إنى لا أكاد أصدق ، وبعد أن كاشفتك بكل هذا . . . »

ونحاها قليلا لينظر فى عينيها : «أما أن أحبك فطبيعى ومعقول ، فإنك حنانة عطوف ، وجميلة رقيقة كالزهرة — أنت كلك من فرعك إلى قدمك طاقة أزهار شتى . . . لم أر أحداً مثلك . . . ولا أظن أن لك من يماثلك أو يدانيك . ولكن أنت . . واثقة أن هذا حب لا عطف ؟ »

قالت : « واثقة جداً ، لقد أحببتك فى اللحظة التى رأيتك فيها تدخل القطار . »

فهمس : « محاسن ، محاسن » وشد على خصرها فارتد رأسها إلى الوراء « إنى خائف يا محاسن . . . فإنك نرجسة . . . لماذا لا أموت الساعة ؟ فقد بلغت مناى . »

قالت : « آه لو كنا نموت الساعة معاً » وتعلقت أنفاسها ، « كلا ، ليس حبي لك عطفاً عليك متنكراً فى صورة حب ، فإنه حب ، ثم إنى أحوج منك إلى العطف ، وأولى به ، فاسمع أنت أيضاً ، واعذر واصفح ، إذا استطعت ، أو انكر وانفر فلن ألوم أو أستغرب . . »

وقصت هى أيضاً قصتها ، كما وقعت ، ولم ترحم نفسها ، ولم تحاول أن تبرئها ، أو تلطف من وقعها .

ولما انتهت قالت : « والآن هات الحكم . »

فابتسم وقال برقة : « لم يكن هذا ذنبك ياحاسن ، فإنك ساذجة عطوف ، ومن السهل خداعك وإيقاعك فى الشرك . »

قالت : « لم يكن هناك خداع ولا شرك ، ولا كان ما كان شيئاً يعتمد وإنما جاء كله عفواً ، كما بينت لك ، وما أظن الآن به إلا أنه كان أكثر منى سذاجة ، ولعله أولى منى بالعطف والرحمة . . مسكين . . »

قال : « ليس لهذا قيمة ، فتناسيه كله ، وليتنى أستطيع أن أمحى ماضى أنا بمثل هذه السهولة ، أو أراه أهون من أن أعيره فكرة ، ولست أدرى الآن ماذا يجمل بى أن أصنع ، فإنى أحبك حباً لا عهد لى به ، ولا كان ظنى أن قلباً واحداً يتسع له ويحتمله ، ولست أطيق أن أدعك معلقة ، وإنه

لصعب أن تتحاب هكذا .

— ٣ —

وعادت محاسن إلى حجرتها فى النزل ، وراحت تتمشى من النافذة إلى الباب ، وقلبها مترع حباً وحزنا ، لقد وجدت ضالتها ، أخيراً ؛ ووجدت عنـــده ما كانت تحسب أنه بعيد بل لا سبيل إليه ، الفهم والادراك والصفح أو التجاوز ولكن ياله من موقف . . . حال مقلـــوب ؟ متزوج ؛ ولكن امرأته هى التى تسرحه أو تمسكه وإن كان يسعه أن يتزوج غيرها . وإنه لمن حسن حظها – أى محاسن – أن حمدى يعد ما كان منه زلة قبيحة وضعفاً يزرى بالرجولة ، ولعل هذا هو الذى وسع صدره لها فغفر زلتها ، ولكن انتظارها سيطول ولا ريب ، ولكن لماذا ؟ وما خير أن تمسكه امرأته هذه ، وهى لا تعاشره معاشرة المرأة لبعلها ؟ولم تستطع – على فرط ما أجهدت رأسها – أن تهتدى إلى تعليل هذا ، فنفضت يدها منه يائسة وراحت تتساءل عما عسى أن تقول لنسيم الذى سخا بماله ، وتعهدها وبرها وسرها ؟ ولا شك أنه يتطلع إلى اليوم الذى يأنس فيه ميلا منها إليه فيخاطبها . تالله ما أكرمه . فهل يسعها أن تعاجله بهذا الخبر الجديد ؟ أم ترى يحسن أن تتريث ؟ وما

الداعى إلى العجلة ؟ أليست ستنتظر الفرج المأمول ؟ العمل الذى يطلبه حمدى فلتنتظر إذن . وإذا احتاجت إلى البث والقول بشجوها ، فإن هناك الأستاذ حليم . وابتسمت وقد طاف برأسها أنه سيسره أنها صارحت حمدى ولقيت منه عطفاً وفهماً وتسامحاً ، فما كان ينهاها عن مصارحة نسيم إلا اشفاقا عليها . ولكن الكتمان عن نسيم قد يعقد الأمور ، ويخلق لها معضلات جديدة بها عنها غنى ، فالأوفق والأصوب والأكرم أيضاً أن تخبره بما كان ، وعلى الله الاتكال .

— ٤ —

وآن أن تعود إلى القاهرة ، فقد تلقت رسالة من نسيم يقول فيها بأسلوبه المعهود إنه أعد « مشروع » أمر بأن يفرش رصيف المحطة بالسجاد العجمى النفيس ، والطريق رملا أصفر ضاربا إلى الحمرة ، وأن تصطف فرق الموسيقى فى الميادين لتحيتها والترحيب بها ، فكان لا بد أن تكتب إليه تنبئه بموعد إيابها ، فترددت واشتهت أن تقضى أياما أخرى مع حمدى تنعم فى خلالها بحبه ، فهل تطاوع نفسها وتبقى أو تعجل بالرحيل ؟

وأرجأت الرد إلى المساء ، حتى تشاور نفسها . وكانت على

موعد مع حمدى فى « سيدى بشر » ، فقد كرهت أن يمر بها كل يوم فى النزل فيلاحظ النزلاء ذلك ، ويلغط ذوو الألسنة الطويلة منهم ، ولم تكن تجعل بالها إلى هذا أو تخشى القال والقيل ، أو تتقى أن يخوضوا فيهما قبل أن يتصارحا ، ولكنها بعد ذلك صارت تحس أن كل عين عليها ، وكل أصبع ممدود يومىء إليها ، وكل همس يجرى بقول فيهما لا حسنٍ ولا قاصدٍ .

وبارحت الترام فى محطة قريبة من سيدى بشرى ، ومضت إلى حيث تقف السيارات التى تقل الركاب إلى الشاطىء ، ووجدت مقعداً خالياً إلى جانب النافذة ، وصعد السائق إلى مقعد القيادة وتهيأ للسير ، وانطلقت الصفارة فمضت السيارة تخطف فى طريقها ، وإذا بمحاسن تبصر رجلا وامرأة على الرصيف ؛ فأما الرجل فعرفته من ظهره ، فما كان غير أبيها ، وأما المرأة فما خالج محاسن شك فى أنها صاحبته الأجنبية التى أنسته زوجته وابنته وأذهلته عن حقوقهما عليه ، وأكلت أكثر ماله ، ونازعتها نفسها أن تتوضح هذه المرأة وتحد النظر إليها ، وأشفقت أن يراها أبوها ، فآثرت التحرز ، فحجبت جانب وجهها بكفها ، وهى تدير رأسها ، وغضت شيئاً من بصرها مع إدامته والاستثبات فيه . وكانت النظرة سريعة قصيرة ، كما كان لا بد أن تكون ؛ ولكنها أرتها ما فيه الكفاية ، فأما

أبوها فكان على خلاف العهد به فى البيت ، مشرق الديباجة بشوشاً حفيا بصاحبته ، وأما المرأة فلم يسع محاسن إلا أن تعترف أنها خود رقــراقة حسنة دوائر الوجه ، واقتضاها الإنصاف أن تقر لها بالحسن ولأبيها بحسن الذوق ، غير أن اقرارها بهذا جعل موجدتها أشد وحقدها أعظم تلهبا ، وحدة غيظها أعنف ، وحدثت نفسها أن هذا هو الرجـل الذى لا ينفك يزعق ويصيح ويزعم أنه يؤدبنا ويقيمنا على طريق الهدى والفضيلة ، ويحمينا أن نضل ونغوى . . وتجىء امرأة ـ حسانة ، نعم ، ولـكن من يدرى أى امرأة هى ؟ ـ فتظهر له الود فتنتزعة من أهل بيته ، وتذهب به أنى شاءت فلا يبالى ما صنع أو ترك ، وإذا ركبت أنا أمراً على غير هداية ، بالغاً ما بلغ من التفه ، قامت القيامة . . فأين العدل هنا ؟ وأى قدوة هذه ؟ وكانت تستولى عليها الحجة إذا واجهها بغلطة هينة ، فالآن ماذا تراه يصنع إذا تركت السيارة وأقبلت عليه وقالت له : « آه بابا ؟ ماذا جاء بك إلى الاسكندرية وكان الظن أنك فى مهمة كما تقول كلما غبت وعدت ؟ ومن هذه السيدة الجميلة التى تتأبط ذراعها وتضحك إليها ؟ ألا تعرفنى بها عسى أن أستفيد منها خلقاً حسنا فوق ما استفدت من حسن تأديبك باللسان والقدوة الصالحة ؟ » وماذا تراه يقول إذا ابتسمت

له وقلت إن بى حاجة إلى شىء من المال أنفق منه كما ينفق ؟ أيضن أم يسخو ؟ أيكون هذا ابتزازاً؟ أيسخط ويلعن فى سره ويدعو الله أن يقبضنى إليه وهو يمد يده بما أعطى مضطراً ؟ أم تهش لابنته نفسه وترتاح إلى البذل كما ترتاح إذ يخرج عما معه لهذه المرأة التى لاتدع لنا إلا الرقفة من العيش ؟ وهبه رآنى مع حمدى على شاطىء البحر نتمشى ونتناجى بحبنا ، كما يتمشيان ويتناجيان فماذا تراه يجرؤ أن يقول لى ، وما أفعل إلا مايفعل ، ولا أحتذى إلا مثاله ، بل هو يركب بكهولته التى كان حقها أن تكون رزاناً حافظة لمروءتها تاركة للقبيح والحرام ، مالاأركب أنا بشبابى على فرط مايهم بأن يجمح بى ؟ ولو انقـدت لشبابى لكان لى عذر منه ومن غرارته ، فما ذقت من نعيم الحياة شيئاً إلا تخيلا ، على حين امتلأ هو ، وكان حريا أن لايشتهى فريداً أو يتصدى له ، فاذا به لايزال مسعوراً حريصاً على اللذة ، يسيم سرح اللهو حيث يتاح ، ولا ينفك كالمنهوم الذى ينتصب قاعداً كلما اكتظ ، ليوسع مكاناً فى بطنه لقدر جديد .

وبلغت سيدى بشر ، وهذه الخواطر الثقيلة تدور فى نفسها ، فألفت حمدى فى مدخل تلك الرقعة من الشاطىء ينتظرها ويتلفت ، فلما رآها أقبل عليها يعدو ، ولم يفته تغير وجهها وإشفاؤها على البكاء ، فسألها ، مالها ؟ ماذا جرى ؟ قالت :

«لا شىء.. ولكنى لا أستطيع أن أبقى هنا، فامض بى إلى أبعد موضع تعرفه... أبعد موضع والسلام..»

وكان حكيما فلم يقل شيئاً، ولم يسألها عن شىء، ومرت سيارة فارغة فأشار إليها، وأمر سائقها أن يمضى بهما إلى محطة فكتوريا، وهناك انتظرا إحدى السيارات التى تغدو وتروح بين الأسكندرية، وأبى قير، واستقلاها إلى تلك الضاحية القصية.

وكان كلاهما صامتاً — هى تدير فى نفسها ما أثارته رؤية أبيها مع صاحبته، وإن كان لا جديد عليها إلا الرؤية، فقد كانت تعرف سره ولا تجهله، ولكن العيان غير السماع، وهو يتساءل فيما بينه وبين نفسه عما اعتراها من الغم والزهق ما علته؟ وعن رغبتها فى الذهاب إلى أقصى مكان ما داعيه؟ أهى تفر من شىء؟ ولكن هذا وجوم الحزين، لا امتقاع الخائف، ولم ير من اللائق أن يستفسر وهما فى السيارة بين الناس، فهل ترى يليق أو يكون من الحكمة أن يسألها عما بها بعد خروجهما من السيارة وافتراقهما عن الناس؟ وكان رجلا طويل السكوت، وقد ألف أن يلم من الأخبار بطرف بعد طرف دون سؤال، وأن يحفظ السر ويتق أن يبدو أنه ينقب، فكان من أجل هذا ربيئة القرية كلها ومجمع أسرارها، يحدثه

كل امرئ بما عنده ولا يحدث هو بشىء ، وينظر لغيره فى أمره ، ولا ينظر له أحد فى أمر له .

وبلغا « أبا قير » فأخذا طريقهما إلى الشاطىء ، وهو غير ممهد ومعظمه رملة ينعقد بعضها على بعض ، وتنقاد فى مواضع وتغيب فيها الأرجل فى مواضع أخرى ، فشغلت محاسن بالوعس وما كان يدخل فى حذائها ، عن همها الذى تجنه ، حتى بلغا البحر . فألفيا هناك « كازينو » دخلاه وجرا كرسيين إلى النافذة المطلة على الماء وقعدا ينظران إلى البحر ، ويسمعان صوته ولا يقولان .

وبعد أن شربا قهوة قالت محاسن : « معك سيجارة ؟ » .

فهز رأسه ، وقال : « آسف ، لا أدخن ، ولكن إذا شئت اشتريت لك سجاير . »

قالت : « لا بأس . شكراً . »

فخرج ، ثم عاد بسجاير ، وقال لها دون أن يقعد : « تعالى انظرى . »

وتقدمها خارجاً ، فنظرت إلى حيث أشار فرأت بيتاً من خشب ذا طبقتين ، مشرفا على البحر وعليه رقعة كتب عليها « للإيجار . »

فقالت محاسن : « ياله من موقع . . إنى لأحسد من يقسم له أن يسكنه . »

قال حمدى : « مادام أنه « للإيجار » فلنزعم أننا نبحث عن بيت . لندخل ونرى ، ونقف برهة فى هذه الشرفة الرحيبة الجميلة . ومن يدرى عسى أن يأذنوا لنا فى البقاء فيها حتى نتغدى . . . وما المانع ؟ »

فسرت محاسن وقالت : « عسى ولعل . ولقد أجدت لى هذه الشرفة منى ، فإن قضينا فيها نهارنا فذاك حسبى من إدراكها . »

فصار هم حمدى أن يبلغها سؤلها ، ويحقق لها مناها ، وسأل صاحب الكازينو عن البيت أهو كله « للإيجار » أم بعضه فقط ، فأخبره الرجل أن الطبقة العليا — التى عليها عين محاسن — هى وحدها الخالية ، ونادى ربة البيت وأخذ منها المفتاح وصعد قدامهما ، ودخلا فإذا بيت فيه من الغرف والأثاث ما لا حاجة بمصطاف إلى أكثر منه .

ووقفوا فى الشرفة فقال حمدى عن أقصر مدة لاستئجار هذا البيت ؟ .

قال الرجل : « إنه لامستأجر اليوم ، ومن شاء أن يستأجره بضعة أيام فله ذلك . »

فالتفت حمدى إلى محاسن ، فأطرقت ، وقد صبغ وجهها الحياء . وطافت برأسها صور لها اغراؤها ، وأخرى تخاف وتتق . وكان يغريها طيب المكان ، وإمكان الإخلاد إلى حمدى بالثقة ، ولكن الحذر لا يمنع القدر كما لم يمنعه من قبل ، وإن حمدى ليحبها ولكن هل لها أن تأتمنه ؟ وفى خلوة تامة كهذه ؟ أو هل تأمن نزق نفسها ؟ وإذا بدا له منها أنها قد لا تبالى التضييع فماذا يكون رأيه فيها ؟ وهبه احتج عليها بأنها ضيعت فلا خوف من زيادة التضييع فماذا تصنع ؟.

وهاجت حرقاتها على سوء حظها وعلى أبيها — هذا رجل كأنما صاغه الله على هواها . ولكن سوء الحظ يأبى إلا أن تكون له زوجة لا يملك أن يفارقها حتى تطلقه . . وإن له إذا شاء لأن يتزوج ، فما انقلب امرأة ، بأن صار الطلاق لامرأته، ولكنه لا يقدم على ذلك حتى يقع على عمل يغنيه عن عمله فى ضيعة امرأته . وما هو بمسحت ، فإن له لخرية يعيش منها إذا راض نفسه على القناعة . ولكنه يتحرج أن يتزوج وهو مخف ، فهل تستطيع يا ترى أن تقنعة بالاكتفاء بهذا القليل ، حتى يأتى الكثير ؟ هذا أمل تسأل الله ان يتحقق . . ولعله إذا تحقق يفتح باب الفرج فتطلقه تلك الزوجة التى تكتنى من الزواج بوثيقته لا يدرى أحد لماذا ، إلا أن يكون أن بها حب

من فرت منه ، وهل كان لابد أن تتزوج هذا لتفر من ذاك ؟ أما إنها لخرقاء مدللة . .

وأبوها ما الرأى فيه ؟ إنه إن يعلم أن خطبها زوج أخرى يأب ويركب رأسه ، وهو أحرى أن يلج فى العناد إذا علم أن العصمة بيد الزوجة فإنه متكبر متجبر — على أهله على الأقل — والرجل عنده هو الرجل ، والمرأة هى المرأة ، وما عدا ذلك كلام فارغ . فهل تخفى هذا وتكتمه عنه ؟ لم لا ؟ وما شأنه هو ؟ وهل يقبل حمدى أن يغالط أباها ؟ أم ترى الرأى أن تتزوجه أولا ، ثم تواجه أباها بالأمر الواقع ؟ فهل تواتيها الشجاعة يا ترى ؟ نعم ، تواتيها ، وما عليها إلا أن تصكه بالحجر الذى وضعه فى يدها فى هذا الصباح . وأمها المسكينة ؟ تتركها تحتمل الإهمال والضنك والشكاسة وحدها ؟ إن أمها صابرة أواهة ، ولكن محاسن لا تقوى على تركها تكابد هذه الشقوة بلا معين ، أفلا سبيل إلى تدبير يرفه عن هذه المسكينة ؟ ألا يمكن أن تشاور فى أمرها حمدى ؟ ولكن المشاورة تحوج إلى الكشف عن سيرة أبيها ، وهذه فضيحة يجب أن تستر وتطوى . وإذا كان أبوها غير أهل للرحمة ، فإنها هى قد تضرس بالحصرم الذى يأكله هو ، وهو أبوها ، كائنا ما كان ما يصنع ، وإنها لمن لحمه ودمه ، وليس الدم ماء . ولقد حرصت على كتمان خبره

عن أمها ، حتى لا تزيد حرقة كبدها ، ولأنه يعز عليها — ولا يهون — أن تكون هى التى تفضح أباها ، ولكن هذا لا يوجب أو يسوغ أن تشقى هى وتحرم حقها فى الحياة .

والخلاصة ؟ إن عين حمدى فى عينها ، بل فى قلبها . فماذا توحى إليه ؟ ماذا يكون جواب عينها ، أو قلبها ، أو . . . لا تدرى ، فإن الجواذب من هنا وههنا تتركها متحيرة ، ضالة ، لا تهتدى . . .

ولم تجب عينها بشىء ، لأنها خرجت من لا ، ونعم ، بأن دارت على عقبها ، ومضت إلى حافه الشرفة ، ووقفت تنظر إلى البحر .

وأقبل حمدى عليها بعد هنيهة يقول : « بعد الغداء أذهب وأجىء بحقيبتك وحقيبتى . . فإن هذا خير من الفنادق . . وفى البيت ثلاث غرف للنوم ، ثلاثة . . فاهمة ؟ »

فما راعها هى إلا أنها دارت وواجهته ، ودفعت يديهـــا فطوقت عنقه ، وتعلقت به ، فأهوى على فمها بالقبلات .

وكان صاحب الكازينو قد نزل ، وصعد عينه ، فرآهما متعانقين فهز رأسه الذى أخذ من جبينه أكثر مما يأخذ نهار الصيف من ليله وتمتم : « شباب .. شباب .. ايه .. ياخسارة .. »

الفصل الخامس

— ١ —

لم يكن أحد يعرف عمر جبران ، ولكن الذين استوطنوا « أبو قير » كانوا يستطيعون أن يخبروك أنهم جميعاً جاءوا ، فى أوقات شتى فألفوه هناك ، كأنما كان بعض وجوه الأرض ؛ وإنه منذ عشر سنوات ، أسن من أن يعمل عملا ، وقد يبالغ بعضهم فيقول : إنه هو والبحر توأمان ، ولعله هو كان أجهل الناس بسنه ، فقد ولد قبل أن تعرف شهادات الميلاد . وكان هو إذا روى ماوقع له فى شبابه يرده تارة إلى عهد إسماعيل ، وتارة أخرى إلى عهد عباس الأول ، وتتفاوت سنه فى الرواية الواحدة بين خمس عشرة وخمس وعشرين أو ثلاثين ، وتلك مسافة من العمر لاتعين على ضبط الحساب .

غير أنه ، على تخبخب جلده ، وذهاب أسنانه ، وضموره وانحنائه ، لم تخب عينه ولم تغرورق من الكبر ، وكانت فيه بقية جلد ، وكان يستطيع أن يمشى وحده ، مضطرباً . ولكنه ما كان يقعد أو ينهض إلا بمعونة .

وقد قضى حياته كلها فى الاسكندرية ، ورملتها ، ولم يتعلم

القراءة والكتابة ؛ ولم يركب قط قطاراً أو تراماً أو سيارة ، ولكنه على هذا رأى ووعى ما لم ير غيره ممن جابوا الأرض وركبوا البحر ، فكان على فقره غنياً .

وكانت له عين سريعة الفطنة إلى الجمال فى مظاهره جميعاً ، فلا عجب إذا كان غنياً . وقد ناهز المائة إذا صح حساب الحاسبين . وفى صباح كل يوم من أيام هذا العمر المديد كان يرقب ميلاد هذا المشهد الجليل الذى يتكرر ولا يسأم على ساحل بحر الروم ، ويتأمل اختضاب البحر بأشعة الشمس الطالعة ، ثم زرقته السحرية عند الظهيرة ، وخضرة الحقول السندسية والظلال الواضحة التى يلقيها كل ذاهب فى الهواء ، وفى كل مساء كان يشهد آية الغروب ويرقب غموض أسطورتها واستسرارها .

وكان كلما ارتفعت به السن ، وقعد به الكبر ، يزداد حباً لهذه المشاهد التى لا تتغير كالإنسان ، ولا ينقص جمالها أو يعدو الزمن على جدتها كما يعدو على السفائن والثياب والبنى ، حتى النساء لم يعد لهن فى نظر جبران ما كان لهن من ظرف ورشاقة ، وفتنة وإغراء فى شبابه . . .

وهكذا صار جبران لا يصلح لشىء ، إلا أن يأخذ بيده واحد من حفدته إلى ظل شجرة عتيقة مثله على مقربة من

الساحل ، ويتركه هناك على كرسى وعلى ساقيه شملة مخططة من صوف ، ينظر إلى البحر الذى لايهدأ ولايستريح ، حتى يدخل الليل فيرتد به وقد فاز بالمتعة التى لاتبلى جدتها .

ولم تره محاسن أوحمدى ، ولم يعرفا قط هذا الأثر المتخلف من زمان غبر ، ولكنه هو رآهما مقبلين يدلفان إلى صخور الشاطىء ويقفان عندها — تحت عينه النافذة — وللمرة الأولى منذ سنوات طويلات المدد ، هم بأن ينهض وحده ، فقد أحس أن هذين لاينبغى أن يتطفل على حبهما إنسان ، ولكن ساقيه خذلتاه ، فبقى حيث هو لايريم مكانه ولايتحرك غير إنسان عينه كأنه أصل شجرة عادية لم يبق منها الابعض ساقها .

ورق قلبه الكبير لهما ، واشتهى ، وقد عزه النهوض ، أن يظلا حيث يراهما ، فما أخذت عينه منذ زمان طويل عاشقين كهذين على ساحل البحر الأبدى .

هذه فتاة حرة ، عارية الرأس ممشوقة القوام ، جميلة الهندام : انظر ياجبران إلى هذه اليد البضة الصغيرة التى تريحها على كتف حبيبها . . تأمل بنانها وجمال هذا الإبهام ، ومرونة هذا الرسغ ، وحسن هاتين الساقين . . . ورأسها المرفوع فوق هـــذا العنق الأسطع ، والخصل المتلوية التى كأنما يومض فيها ألف نجم

ونجم — الله تعالى هو الذى أبدع هذا الشعر ، لا الحلاقون ، والشمس هى التى غذته بنورها مذ كانت صغيرة .

والفتى الواقف الى جانبها أهل لها ، ما فى هذا شك ، طويل عريض معتدل القامة ، وقوى متين — رجل ، رجل ، كما ينبغى أن يكون الرجل ، تأمل ذراعيه وكتفيه وصدره الواسع العميق ورأسه العارى أيضاً يعتدل فوق كتفيه ، وعينه صريحه ، ووجهه ناطق بالنبل والخير ، فهى معـــه فى أمان من المخاوف ، رجل صريح قوى القلب وفى — كلا لا يتغير مثل هـــذا لعزته ، كما لا يتغير البحر الذى ينظران إليه .

وسر جبران وشرح صدره أن حمدى تناول راحة محاسن ورفعها إلى شفتيه ولثم بنانها ، ثم قعدا وظهراهما إلى جبران المعجب المغتبط وعيونهما على البحر الذى يحبه حبا جما .

وقال حمدى : « هذا ما لم أكن أجرؤ حتى أن أحلم به »

قالت ، التى لو سئل عنها جبران ، وهو يرمقها ، لقال إنها خلقت أحسن مما يقول من يصف : « ولا أنا كنت أحلم بهذا ولكنى ، من فرط السعادة أخشى . . . »

قال . « لا تخشى شيئا . . سنتزوج . . الساعة إذا شئت . . ما عليك إلا أن تأمرى فأجىء بمأذون ، فما أظن إلا أن هنا مأذونا . . . »

قالت : « كلا . . ليس الآن . . أقول لك الحق إنى لا أدرى ماذا ينبغى أن أصنع . . ولا أكتمك أنى . . . تعلم ما أعنى . . ولماذا لا أفصح . . ؟ إنى أحبك ، وأخشى أن تطير منى . . . أخشى من هذا الحب أن يقصيك عنى . . ولكنى أحسب أن التريث أولى . . لا من أجلى أو أجلك ، ولا من أجل أبى . . بل . . الحقيقة انى لا أدرى من أجل من . . لا تضحك منى ، فإن هذا أول حب لى ، وأحسبها أول حيرة أيضا ، لا ليست أول حيرة ، ولكنها أول حيرة سارة »

قال : « لا داعى للحيرة ، ألسنا قد اتفقنا ؟ »

قالت : « وماذا تنوى أن تصنع مع . . . »

قال : « مع التى تزوجتنى ؟ لا شىء ، وماذا عسى أن أصنع ؟ هى التى بيدها الأمر فلتفعل ما تشاء ، وليس يسعها أكثر من تطليق . . . واخجلتاه . . . ولكنك تعذرينى ؟ أرجو ألا تحتقرينى . . . »

وتناول كفها بين كفيه وهى تبتسم له ابتسام العطف والفهم ، ومضى هو فى كلامه فقال : « إنها ما اتخذتنى إلا تكأة . وجعلت الأمر بيدها لتكون حرة حينما تريد ، وليست بحريصة علىّ ، فما كنت زوجها إلا بالاسم ، ولا عرفتها كما يعرف

الرجل امرأته ، ولا عبأت هى شيئا بفرارى ، أو لعله ينبغى أن أقول « نشوزى » فإنى ، وأنا الرجل ، أصبحت فى مكان المرأة المستعصية الكارهة النافرة » ، وضحك ثم قال : « لا أخشى على كل حال أن تطلبنى إلى محل الطاعة . . »

فقالت محاسن : « لماذا هذه المرارة ؟ أرجو ألا تحمل على نفسك هذه الحملة ، كان ما كان ، فليكن أيضا ما يكون ، عدنى أن لا تفكر على هذا النحو أبداً »

فوعدها ، ونهضت ، فهم بالنهوض ، فلمست كتفه وأومأت إليه أن يبق ؛ وقالت : « سأسبقك ، ودعنى نصف ساعة ، ثم الحق بى »

وكانت هذه أول مرة تزينت فيها محاسن لحبيب ، فلما صعد إليها حمدى ورآها وقف ، كأنما صده شىء ، وفتح فمه من الدهشة وندت عنه « آهة » إعجاب بحسنها ، وكانت فى ثوب أبيض من الحرير مطرز بفصوص من خرز بنفسجى ، ومفتوح الجيب ، يكشف عن اعلى الصدر والظهر ، وحول جيدها عقد من اللؤلؤ زاده رقة ونصاعة ، وفى أذنيها قرطان — من لؤلؤ أيضا — وفى شعرها هلال مكلل بفصوص شتى الألوان على هيئة النجوم ، وعلى يمناها سوار مفتول من فضة . وقد طاف

برأسها وهى تضع هذه الحلى أنها بعض ما أهدى إليها نسيم.

ودنت منه ولصقت به حتى لشعر بدقات قلبها السريعة، فجمعها بين ذراعيه، وضمها إليه بقوة، فطوقت عنقه بيديها وتعلقت به وثنت رأسه اليها، فالتقت الشفاة فى قبلة حارة تركتهما ينتفضان، فحملها على يديه كأنها طاقة زهر، ومضى بها الى الطارقة وقعد وهى فى حجره.

وهمس فى أذنها: «هل تعلمين أنك من وزن الريشة؟».

فضحكت. وثنت اليه وجهها. واستدارت شفتاها للقبل.

— ٢ —

وكل شيء فى هذه الدنيا، اتفاق، أو حظوظ وقسم، وقلما يغنى التدبير والسعي والطلب غناء المصادفة، «وما أكثر ما تأتى المقيم، وما سعى حاجاته. عدد الحصى، ويخيب سعى الطالب» وقد سعت أم سميرة سعياً حثيثاً لتحمل سميرة على تطليق زوجها، أو على معاشرته معاشرة الأزواج، بعد أن طاشت، وتسرعت، وسلكت سلوك المأفون الأخرق، فما كان لكل هذا داع. وكان فى وسعها أن تنأى عن محمود دون أن تتزوج غيره، وأن تصرفه وهى خافضة وادعة، فإن جهد النفس واحد. وما تتجشم من مرارة القطيعة لا يختلف فى الحالين، فأما وقد دفعتها خفة العقل والسفه الى ما فعلت، فإن عليها أن

تراجع نفسها وتشاور عقلها ، فإما أن تحيا حياة طبيعية ، وإما أن تكف عن هذا العبث الذى تتكلفه وتضيف به عذاباً إلى عذاب ، وتنى، إلى ماهو أرشد وأولى بأن يبلغها سؤلها ، فما من شك فى ان انفسخ أمله وقنط لما رآها تزوجت . ولعله زاد نفوراً لما علم أنها جعلت العصمة فى يدها ، فإنه شاب فيه إباء مر ، وله خلق وعر ، وقد كان يثقل عليه أن لها مالا ، فلابد أنه كره منها أن تستعلى على الرجال ، ولكنه خليق إذا علم أنها أصبحت حرة طليقة غير موثقة ، وان كان الزمام فى يدها . ان تخايله صورتها ، ويعاوده طيفها ، وتمثلها المنى لقلبه بعد ان اشاح بوجهه عنها يأساً منها ، فما يموت الحب هكذا . ولو كان لهو ساعة لبقيت له بذكراه نوطة فى القلب وعلوق بالضمير وماتنقصه الا قدحة زناد تطيرشرارة ترده مسجوراً — والأرجح أن محموداً حانى الجوانح والقلب على حبه مذ حدث ما حدث . ولعله يتجلد ويعاند ، ويكابر ، ونفسه ، وهو يدرى أو لا يدرى ، موكلة بسميرة ، مملوءة من حبها ، وعسى أن تكون ما زالت عنده مرعى الأمانى ، ورضى النفس ، وحسب الهوى ، يراها بالود وإن لم يرها بالعين ويدنيها الفكر المفجوع حتى تتراءى له توهما . ولكن هذا كله يظل علة شقوة لهما كليهما ما دامت موثقة بهذا الوثاق السخيف ، وإن كليهما لمحلا

عما هو حقه ، فإما أن تسكن سميرة إلى الواقع الذى اختارته بفساد عقلها ونزقها ، وإما أن تتنكب لتهيىء فرصة جديدة لمحمود ولنفسها .

ولكن منطق الأم الحكيمة المجربة لم يقنع سميرة التى كبر عليها أن تقر بالغلط بل بالنزق والخفة . فظلت معاندة جامحة ، حتى كان يوم .

وكان محمود قد كف عن حضور السباق ، مخافة أن يلتقى فى حلبته بسميرة ، فتهيج حرقاته ، ويصدر عنه ما لا يحمد أو يليق ، ثم التحق بخدمة الحكومة وصار ذا وظيفة ، فرد البطاقة إلى الصحيفة التى كان يكتب إليها مكتفيا بالاعتذار بأن « صاحب بالين كذاب » ولم تكن الوظيفة تستنفد وقته أو مجهود شبابه ، وإنما كان يخشى أن يشهد السباق ، كما قلنا ، فيتفق أن تكون سميرة هناك ، وحينئذ ماذا يصنع ؟ يتجمل ؟ يغضى ؟ يظهر الفتور وقلة الاكتراث ؟ يحييها ؟ وهى : ماذا عساها تصنع ؟

ثم خطب غيرها ، فصنع كما صنعت ، وإن كانت هى البادئة ، والبادىء أظلم ، ولا جناح عليه ، ولكنه يحسن أن تطوى تلك الصفحة القديمة طيا ليس له من نشر ، ولما لم يكتب له أن يكون مع محاسن أكثر توفيقا ، كفر بالمرأة ، وأعتقد أنها

مبنية على الغدر ، وأنها حول قلب لا وفاء لها ولا عهد ،وأن من الخير أن يظل حياته مستفرداً وحداً .

وصار يتسلى عما ساءه من زمانه بالاختلاف مع إخوانه إلى المراقص ودور اللهو الأخرى ، إلى أن كان يوم أقيمت فيه حفلة راقصة لمساعدة معهد خيرى ، فذهب مع صاحب له ، فانتحيا ناحية وراحا يرمقان الناس ـ والنساء على الخصوص ـ فما كان بين الرجال تفاوت يذكر ، وكلهم يرتدى ما يسمى ثياب السهرة ، أما النساء فكانت ثيابهن معرض أزياء وأذواق .

وإنه لجالس يدير عينه فى هذا الحشد الذى لا يسكن إلا ليموج ، وإذا بسميرة داخلة على ذراع فتى وسيم قسيم يشق بها الجمع ، ويقبل على الناحية التى هو فيها ، وكانت مرتفعة بضع درجات ، فكأنما شك فى خاصرته سيف ، فانتفض واقفاً ، واندفع هاربا بغير تفكير ، فعلقت قدمه بطرف البساط فانكب على وجهه ، وهوى على الدرجات ، وأصابت سن إحداها ساقه . فهاضتها ، فبقى منطرحاً لا يقدر على حركة .

وكان صاحبه قد دهش ، ثم أفاق ، فلما رآه طريحاً خف إليه وكان خلق كثير قد اجتمع حوله ، وحف به ، فجعل صاحبه يدفع الناس ويفرقهم عنه ، حتى وصل إليه ، فألفى سميرة — وإن كان لا يعرف أن اسمها سميرة — جاثية على ركبتيها ، وقد

أحاطت ظهره بيسراها وأراحت رأسه على صدرها ، وهى تدعو الناس — وتشير إليهم بيمناها — أن يتفرقوا ليتنفس .

وجثا صاحبه مثل جثوها ، وقال وهو يمد يديه ليرفعه عن صـــدرها:

« عنك يا هانم ، وشكراً لك »

قالت « لا لا لا . . . هذا شأنى أنا ، ما شأنك أنت . . . اذهب عنا . . . تعال يانسيم واحمله معى »

قال صاحبه « إنى معه وأنا صديقه » .

قالت :« قلت لك إن هذا شأنى أنا . . . ألا تفهم . . . تعال يانسيم » .

فدنا منهما نسيم وقال : « بل هو شأن الإسعاف الذى يمثل آل نسيم روحه فى كل موقف يدعو إليـــه . . » وأشار إلى خادمين واقفين ينظران مع النـــاظرين ، ويزيدان الزحام والضيق ولا يصنعان شيئاً ، وقال : « إن وقفتكما جميلة ، ولكنى مضطر أن أحرم الجمهور جمـــال هذا المنظر ، فهل لكما أن تتفضلا بمعـاونتى على حمله إلى السيارة . . . شكراً . . . لم يخب أملى فى شهامتكما » .

وحملوه برفق إلى السيارة ، وكانت سميرة لفرط اضطرابها

تعترض طريقهم وتدور حولهم ، وتسير مرة أمامهم ومرة خلفهم وتارة عن يمينهم وأخرى عن يسارهم كالكلب الوفى ، حتى أرقدوه فى السيارة ، وقعد على الأرض فيها معه نسيم واتخذت هى مقعد القيـــادة ، وانطلقت إلى بيتها وخلفت صاحبه على الرصيف فاغراً فمه كالأبله .

ولما بلغوا البيت تركت السيارة ومن فيها وذهبت تعدو إلى أمها حتى إذا لقيتها صاحت بها « وجدته . . وجدته . . » .

فقالت لها أمها : « وجدته ؟ من عسى أن يكون هذا ؟ » .

وكان لها عذرها إذا لم تفهم ، فما كانت اطلعت على الغيب .

فقالت سميرة : « ومن عسى أن يكون سواه ؟ » .

قالت الأم : « حلمك ، إن الله مع الصابرين . . . ألا تقولين . . . » .

قالت سميرة : « صابرين ؟ أهذا وقت الصبر وهو مكسور فى السيارة »

فضحكت الأم وقالت : « وجدته . . وليس هذا وقت الصبر . . لأنه مكسور فى السيارة . ومع ذلك تتركه وتجىء تتكلم بما لا يفهم . . . طيب . . . »

ونهضت الأم ودعت الخدم وأمرتهم أن يحملوا « المكسور » وأمرت وصيفتها أن تعد له غرفة ، وقصدت هى إلى التليفون فدعت طبيباً .

وكان محمود لايزال فيما يشبه الغيبوبة ، من الألم الحاد ، والذهول ، واعتلاج العواطف فى صدره الذى صار كالخضم ، فكان ينظر ولا يكاد يرى ، ويدرك مايجرى حوله ومايصنع به ، ولكنه كالمدار به لاقدرة له على قول أو عمل .

ورأته الأم فابتسمت وهزت رأسها ، وقالت لنفسها : ماأقل غناء التدبير .

وقال لها نسيم : « ياسيدتى ، كونى منصفة . ألا أستحق على الأقل فنجاناً من القهوة ، ودعى الشكر وإن كنت أهلا له ، وليست هذه ساعته ، على كل حال ؛ على أنى بذكائى المعهود ، وفراستى التى لا أظنك إلا معترفة بأنها صادقة ، أرى أنى سأكون أهلا لشكر أعظم . . . فى أوانه ، وما أرى أوانه إلا قريباً . . . أى نعم . »

فقالت الأم : « ماذا تقول ؟ عن أى شئ تتكلم ؟ ومن أنت أولا ؟ . »

قال : « لكل سؤال جوابه عندى . فأنا ، ولا فخر ، نسيم ، رفيق السهرة المنبوذة ، أو المنسى بعد أن وجد العصفور عشه ، فهل اقتنعت الآن بما وصفت لك من ذكائى ؟ أما ماذا أقول فأظن أنك سمعته ، ولا بأس مع ذلك من الإعادة فقد تكون فيها إفادة ، نعم سمعتنى يا سيدتى أقول إنى أستحق فنجان قهوة

بما قدمت من معونة مشكورة على رد العصفور إلى قفصه . »

قالت : « آه . . فهمت . . لماذا لم تقل هذا من الأول ؟ . »

قال : « معذرة إذا كنت قد وثبت إلى النهاية وتخطيت البداية ، وهذه آفة آل نسيم جميعاً . كلهم وثاب الذهن كما ترين . . . ولكنى أرى جرساً يتدلى من هذه النجفة البديعة ، فحبذا لو ضغطت زره بأصبعين من يدك الجميلة . . . »

وكانت مميرة ، فى أثناء ذلك قاعدة على السرير الذى أرقدوا عليه محموداً ، وكانت لا تنفك تحنو عليه وتقبل ما بين عينيه وجبينه وخديه ورأسه حتى أذنيه وأنفه ، وكلما هم بكلام وضعت راحتها على فمه لتمنعه ، وكلما أدار وجهه ردته إليها برفق وعادت إلى التقبيل والتنهد والتشهد .

وأخيراً ابتسم . . لم يسعه إلا أن يبتسم ، وقد هدأ الشبح المربد ، والموج المعتلج ، وتسنى أن تبصر عين الضمير ما كان اصطخاب الأوادى يحجبه ويطويه .

وقالت له : « لن أدعك تفر منى مرة أخرى . والحمد لله على ما أصابك فلن تستطيع أن تغافلنى وتهرب . »

فهم بأن يقول إنه لم يكن هو الذى فر منها ، ولكنه عدل عن الجدل والخلاف فى مثل هذه الساعة ، وأشار إلى فمه ، فمالت عليه ، وأراحت صدرها على صدره ، وضمته وقبلته .

فلم يزد على أن قال آه .. من حلاوة القبلة ورضى النفس .

وكانت أم سميرة قد بقيت مع نسيم ولم تصعد ، لتتيح للشقيقتين أطول اجتماع ، وعرفت منه أن اخته من صديقات سميرة ، واستطاعت بعد عناء أن تقف على ما وقع ، فقد كان لا يفتأ يحاورها ويداورها .

وقالت له أخيراً : « لماذا تتكلف هذا الأسلوب ؟ أتراك خاب لك أمل ؟ »

قال : « آل نسيم يخيب لهم أمل ؟ كلا .. إنما يخيب أمل من يخيب فيه أملهم . »

قالت : « إنك تدوخني . فلماذا لا تتكلم كخلق الله ؟ »

قال : « سمعاً وطاعة . وسترين أني أقدر على هذا أيضاً . وهاك مثالا .. أظن أن القادم هو الدكتور .. »

وكان هذا صحيحاً .

وقال الدكتور لنسيم بعد أن سلم وعرف ما دعى له :

« ألا تصحبني ؟ »

قال نسيم : « كلا ، بل تصعد وحدك ، ولا تخف فإني هنا . »

فألقى إليه الطبيب نظرة مبتسمة ، وصعد .

٣

لو درت محاسن بما حاق براتب بك بعدها ، لكان أول ما هو خليق أن يجرى لها بخاطر أن الله قد انتقم لها من هذا الظلوم الشرس الطويل اللسان ، ثم لكانت حرّية أن تبتسم ويدركها عليه العطف وتقول « مسكين ! »

ذلك أن راتب بك انحدر ضحى نهار مشمس من أيام الربيع يزينه زهر حديقته، فلولا أن هـذا مستحيل — فى مصر على الأقل ، وفى القاهرة على وجه أخص — لقلنا مع أبى تمام إنه كان يبدو — النهار لا راتب بك — « كأنما هو مقمر »

وكان راتب بك يدير عصاه ، وينفخ الدخان ووجهه إلى السماء ، و « السيجار » الغليظ بين إصبعين من يده ليسا أقل غلظا ، ولكنه لم يكن يشعر بالرضى المعتاد عن نفسه وعن الدنيا ، وخيل إليه وهو يدخل فى السيارة أن فطوره فى هذا الصباح لم يكن مريئاً ، بل كان بشعاً عسر الابتلاع كأنما كان بغير أدم أو كان فيه حصى ، وإن القهوة أيضاً كانت لها زهومة كأنما كانت قد خُلطت بشحم .

ولم يستغرب أن لا يشعر بقضض الطعام ، وزهومة القهوة ، إلا بعد أن أكل وشبع ، وارتوى بل تضلع ، وأتى على نصف

السيجار الأسود — أو البنّى — الغليظ . وإنما كان يستغرب ، وهو مضطجع فى سيارته الفخمة ، أنه يشعر بامتلاء غير معهود ولا معقول إذا اعتبرنا سخطه على طعامه فى هذا الصباح ، وهو امتلاء يمنع أن يواصل التفكير المنتظم فيما كان يشغله مذ فتح عينه على النهار .

ودخل مكتبه « ممتلئاً » ، وكان عهده بنفسه أنه يدخل « منتفخاً » و« النفخة » — ولو كانت كذابة — تفيده لذة ، أما هذا « الامتلاء » فلا يفيده إلا كرباً واضطراباً وارتباكا .

وانحط على كرسيه الدوّار ، وما كاد يفعل حتى زوى ما بين عينيه وأرسل يده تحته تتحسس ، وكان مقعد الكرسى من خيزران فأنى له هذه الوثارة والطراوة كأنما طرحت عليه وسادة . ؟

ورد الكرسى — دفعة إلى الخلف بفخذيه — ونهض واقفاً ، وذهبت يداه تتحسسان بدنه ، ثم رفع إحدى قدميه ودس يده فى ساق البنطلون ، فلمست شيئاً ما كان ينبغى أن يكون هناك ، فما اعتاد أن يرتدى تحت البنطلون سوى السراويل القصير الساقين . ووقف هنيهة ، ويده مدسوسة تحت الساق ، وفمه فاغر ، وعيناه شاخصتان لا تطرفان ، من فرط الدهشة .

ثم استوى واقفاً وأعمل يديه — بلا تفكير — فى أزرار البنطلون يفكها بسرعة ، فكان ما خاف أن يكون ، ذلك أنه نسى أن يخلع المنامة — البيجامة — فارتدى البنطلون فوقها ! وأوسع نفسه ذماً ولعنا ، وهو يخرج رجليه من الساقين ، ويلق بالبنطلون على المكتب ريثما يخلع سراويل المنامة .

ولو أن الله كان قد أراد به خيرا لفكر قليلا قبل أن يفعل ذلك ، أو لا خطر بباله إما أن يتجلد ويصبر على أن يظل بنطلونه محشواً بأكثر من جذعه حتى يؤوب إلى بيته فيصنع بثيابه ما شاء ، ويطرح عن بدنه منها ما يكره ، وإما أن يتحول إلى الحمام فيوصده على نفسه . ويفعل ما هو فاعل فى مكتبه بغير عقل ، ومن غير أن يكلف نفسه أن يستوثق من الباب . وصحيح أن هذه غرفته الخاصة ، وأن بابها غير مفتوح ، وأنه لا يدخل عليه فيها داخل بغير استئذان ، ولكنها ليست حصنا منيعا لا ينال ، وآية ذلك أن الآنسة « ريا » التى حلت محل محاسن ، فتحت الباب بخفة ، ثم ردته برفق ، ودخلت تمشى على أطراف أصابعها — أو ذنابة حذائها الدقيق — وعلى ذراعها طائفة من الأوراق وبين إصبعيها قلم ، وعلى فمها — وفى عينيها — ابتسامة خفيفة ، تمهيداً لتحية اللسان !

ولم تخط سوى خطوتين اثنتين — أو خطوة ونصف

خطوة ، فقد ظلت قدمها اليسرى متخلفة — رأس حذائها على الأرض وكعبه مرفوع فى الهواء — وغاضت الابتسامة ، وثبت الحملاق ، وتدانى ما بين الجفون ، وما بين مخطى الجبين أيضا ، وتحركت الشفتان بكلام لم يتبينه راتب بك ولكنه سمع صوته فرفع رأسه مرتاعا ، وهوى شخصه فغاب فى الفضاء القليل بين الكرسى والمكتب — ما خلا رأسه فقد ظل فوق خط الماء — وصاح « اخرجى ! اخرجى ! ألا ترين أن هذا ليس وقت الدخول بـ » .

قالت بهدوء : « إنى أرى كثيراً مما لم أكن أتوقع أن أراه ، وقد سلبنى ما رأيت الإرادة أو القدرة على الحركة ! » .

فعاد يصيح : « أقول لك اخرجى ! ألا تسمعين ؟ ماذا يقول الناس إذا دخل داخل ووجدك هنا ؟ » .

قالت : « لا تخف علىّ ؛ فإنهم سيقولون فيك أولا » .

وأحس راتب بك أن هذا الشطر من المنامة قد تدلى إلى قدميه واختلطت جملته بهما ، فشرع يرفع قدما بعد قدم ليخرجهما ويخلصهما ، — عبثا ، فقد كانت الحركة غير ميسورة وهو قاعد القرفصاء برغمه ، وفخذاه إلى بطنه ويداه على ركبتيه — وأتعبه تكلف حركة ليست فى خير الأحوال بالهينة ، فكيف وذقنه على طرف المكتب ، فضاق صدره وانطلق لسانه يقول

« ألا تنوين أن تخرجي ؟ ماذا عسى أن يقول الناس ؟ »

وكانت ريا فتاة خبيثة ، تحسن اغتنام الفرص اللائحة ، فقالت: « إنهم خليقون أن يقولوا أنك دعوتني لشهود هذا المنظر وآثرتني به في غرفتك الخاصة . »

فكاد عقله يطير وزعق: «إمشي ! اخرجي ، فأنت مطرودة»

قالت : « صحيح ؟ وما قولك في أن أصيح كصياحك وأخرج كالقنبلة وأجمع موظفي الشركة عليك . »

وكانت وهي تقول ذلك تبدو لراتب بك كأنها تستحلي الكلام ، وتستطيب المنظر الذي رسمت له خطوطه الكبرى وتركت له العناية بالتفاصيل .

فقال بصوت ضعيف : « أعوذ بالله منك ! طيب ، اخرجي فلن أطردك ، ودعيني أفعل ما أنا فاعل . »

قالت ببرود : « وهذه الأوراق ؟ »

فأسعفه صوته وصاح : « هذا وقته ؟ سبحان الله العظيم ! »

قالت : « سؤال قبل أن أخرج . . لماذا لبست المنامة تحت البنطلون ؟ . »

قال : « لا أدري . . . وما شـــأنك أنت ؟ أقول لك اخرجي ! . »

قالت : « إنه منظر لا تراه الواحدة منا كل يوم . . . وفى شركة تجارية ومكتب كهذا . »

فقال محتجاً : « هل يتصور عقلك الوسخ أن هذه عادة لى ؟ »

قالت : « يحسن أن لا تعتادها . »

وخرجت بخفة كما دخلت ، وردت الباب وراءها ، فنهض الرجل وأتم ما كان بدأ ، ولعن نفسه والوجه الذى أصبح عليه فى يومه ، وجرأة ريا وقلة أدبها ، وحدث نفسه أنه سيلقى منها ويلا . وطوى المنامة ورمى بها — لقلة عقله مرة أخرى — فى سلة الورق المهمل .

ودق الجرس فدخلت عليه ريا مرة أخرى ، فألفته جالساً إلى مكتبه على عادته فقالت « هذا أحسن ! » .

وهم بأن يزجرها عن العود إلى الموضوع ، ولكن فراش المكتب دخل فى هذه اللحظة بالصينية وعليها كوب ماء بارد وفنجان قهوة ، ووضعها على المكتب ، ودار لينصرف فلمحت عينه المنامة فانحنى ، ومد يده فأخرجها ورفعها ، وتأمل ألوانها الزاهية ، ولمسها وفركها بأصابعه ، وهز رأسه معجباً بحريرها الطبيعى النفيس ، ثم حول وجهه إلى راتب بك وسأله : « هل هذه لك يابك ؟ » .

وكان راتب بك قد غض بصره عجزاً منه عن النظر إلى

الفراش وهو يقلب المنامه أو شطرها الأسفل — أطرق وأبق عينه على المكتب ، فقال . « لا » ولم يرفع رأسه .

قال الفراش : « وماذا جاء بها إلى هنا ؟ لقد كنست المكتب ونظفته ولم تكن هذه فى السلة » .

فأحس راتب بك أن رأسه يدور ، فقد صار كل امرئ يجترئ عليه بالخلاف والمجادلة ، حتى الفراش .

وتشدد وقال : « أراك لا تصدقنى ، شىء جميل يا حسنين ! » اخرج وارمها حيث شئت ولا تكلمنى فيها مرة أخرى . سامع ؟ »

وانصرف الفراش فقالت ريا : « أتظن أنك كنت حكيما ؟ » .

فسألها راتب بك « ماذا تعنين ؟ » .

قالت : « تركت المنامة لحسنين » .

قال : « وماله ؟ ماذا أصنع بها ؟ إنى لا أطيق أن أراها مرة أخرى ، ولا أنت أيضاً » .

قالت : « شكراً . ولكن كل موظفى المكتب سيرونها الآن ، وسيعرضها حسنين عليهم واحداً واحداً ، ويقول لهم إنه وجدها ملقاة فى السلة وأنا معك . . . »

فصاح بها مقاطعاً : « ألا تخجلين ؟ » .

قالت : « هذا شأنى أنا ، وقد كنت أبين لك شأنك . . . أنت حر . . . »

فوضع رأسه بين يديه وقال كمن يحدث نفسه :

« ياله من نهار أسود ! ما العمل الآن ؟ »

قالت : « ألا ترى أنه يحسن بك أن تكون لطيفا معى ؟ »

فنظر إليها نظرة ملؤها الحقد والمرارة ؛ وقال : « لطيف معك ؟ أهو ذاك ؟ »

قالت بهدوئها الذى لا يفارقها : « نعم ، وتذهب بى مرة إلى السينما ، أو إلى . . . »

قال ، بلهجة الزراية : « ويرانى الناس معك . . مع مثلك ؟ »

فأطرقت ريا تتدبر قوله هذا ثم رفعت رأسها ونظرت إليه وقالت : ولم لا ؟ إنك لست دميما جدا »

فصاح : « إيه ؟ »

قالت « لا تزعق ! فما أظن بموظفيك إلا أنهم قريبون من الباب »

قال : — بصوت خافت — « إنك أوقح من رأيت فى حياتى »

قالت : « لست أوقح منك ! ألم تخلع منامتك أمام عينى ؟ »

قال « ما حيلتى ؟ أنت دخلت بلا استئذان ، فرأيت

ما رأيت ! . . لماذا لا تدعين هذا الموضوع ؟ إن عملى معطل ! »

قالت : « وتتغدى اليوم عند الحاتى ؟ »

قال : طيب ! طيب ! »

وكانت هذه هى البداية ، وهى حسب القارىء ، وفيها عبرة كافية سقناها غير باخلين بها على من يطيل لسانه على البنات الطيبات ! . .

تصـــويب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٥	٨	يطوف	يطرف
٣٥	١٣	محترما	محترفا
٣٧	١	مخبأ	مِجَنـا
٤٤	١٣	لو	إذا
٤٥	٥	من	عن
٤٥	١٩	تطرق	تطرف
٤٦	٣	كأنما	كأنه
٤٩	٢	يغص	يغضر

لجنة النشر للجامعيين

تقدم

أقاصيص

للأساتذة

ابراهيم عبد القادر المازني
محمود تيمور
ابراهيم المصري
عادل كامل
محمد فتحي ابو الفضل
نجيب محفوظ
عبد الحميد جودة السحار

يظهر في
فبراير
١٩٤٤